أمية محمد صلى الله عليه وسلم

هل كان يعرف القراءة والكتابة؟



خالد محمد عبده

مكتبة النافذة

أمية محمد ﷺ

هل كان يعرف القراءة والكتابة؟

تأليف

خالد محمد عبده

مكتبة النافذة

أمـيــة محـــمد ﷺ

خالد محمد عبده

الطبعة الأولى / ٢٠٠٦

الناشر: مكتبة النافذة

المدير المسئول: سعيد عثمان

الجيزة ٢شارع الشهيد أحمد حمدى - الثلاثينى - فيصل

تليفون وفاكس: ٧٢٤١٨٠٢

Email : alnafezah@hotmail.com

تقديم

كانت أول كلمات الله لنبيه محمد ـ ﷺ ـ اللبنة الأولى التي شكلت فيما بعد نصا إلهيا اعترف الجميع باستحالة مضاهاته أو المقاربة من أسلوبه حتى في أعلى الإبداعات الإنسانية ، ورجع ذلك إلى مستوى القرآن الإلهي .

ومنذ ظهور القرآن برز الاعتناء به وتدوينه وحفظه ، من قبل مبلغ الرسالة (محمد) وأصحابه على السواء ، فقد كان أحب شيء لقلب النبي محمد هو القرآن ، باعتباره مفتاح الاتصال بينه وبين ربه ، وهو السبيل الأعلى للمناجاة الروحية ، والقرب من ملكوت السماوات ، والبعد عن أدران النفس البشرية .

وبعد وفاة محمد ـ ﷺ ـ عكف الجميع على دراسة نصوص القرآن كلٌّ بقدر طاقته العقلية ؛ لأنه سيفتح لهم مغاليق هذا الكون الصامت ، ويخرجهم من براثن الجهل ، إلى أعلى درجات المعرفة .

وبرزت الدراسات القرآنية ، في عصور التدوين (القرن الثاني للهجرة) إلى ساحة العلم ، وكان النصيب الأوفر في الدراسات القرآنية ، لأصحاب المذهب الاعتزالي ، فكتبوا الكثير حول إعجازية القرآن ، وانعدام الإتيان بمثله ، وربطوا هم وغيرهم بين أمية النبي محمد ـ ﷺ ـ وبين إعجاز القرآن ، للتأكيد على إلهية القرآن ، وأن مثل هذا الكم من المعارف والعلوم والحقائق الثابتة لا يصدر عمن يجهل القراءة

والكتابة .

فالقرآن يقول : " وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذًا لارتاب المبطلون ، بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ، وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون "[1] .

ولقد مثلت الآية الأولى قطب الرحى في التأكيد على أمية النبي محمد ، دون التفات لما توضحه الآية التالية لها ، فعلى فرض أن محمدا كان قارئا كاتبا ، ما جاز لهم أن يرتابوا ، فهذا القرآن يشهد بذاته على أنه ليس من صنع البشر فهو أكبر جدا من طاقة البشر ومعرفة البشر ، والحق الذي فيه ذو طبيعة مطلقة كالحق الذي في هذا الكون ، وكل وقفة أمام نصوصه توحي للقلب بأن وراءه قوة ، وبأن في عباراته سلطانا ، لا يصدران عن بشر ، فهو دلائل واضحة في صدور الذين وهبهم الله العلم ؟![2]

ونتساءل : إذا كان القرآن بشريا ، أوفيه من البشرية شيء ، أو استنبط من علم الآخرين ، فما هي روافد هذا العلم ، وأين يجد الناس منابعه في هذه الأرض ؟!

أكانت أفكار التوحيد تنبت بين أوثان الجزيرة وأحجارها ؟!

أم كانت آيات العدل تقتبس من غطرسة الأكاسرة المجوس ؟!

أم تعلم محمد الرحمة التي بعث بها من قلوب اليهود القاسية ؟!

أو وضع أصول الوحدة من اختلاف الكنائس المسيحية وانقسامها ؟!

ثم هب أن محمدا استوحى أصول دينه العظيم من الأرض لا من السماء ، ماذا يستتبعه هذا الفرض مما يصادم العقل والواقع ؟

---

[1] العنكبوت : ٤٨، ٤٩.

[2] راجع : سيد قطب - في ظلال القرآن - ص ٢٧٤٦ ، ط ١٣ دار الشروق - القاهرة .

النتيجة الغريبة . هي أن قرآنا بشريا استطاع أن يقوم بدعوة لتوحيد الله في أسلوب من القول والتوجيه لم تستطعه كتب السماء نفسها ، وأنه خدم الدين بما لم يفعله رب الدين نفسه .

أفهذا منطق ؟ أفهذا الدين من وضع محمد ؟[3]

الحقيقة التي أكد عليها القرآن ، واتضحت من حياة النبي ، أن محمدا ما هو إلا رسول إلى البشرية يبلغهم هداية السماء ، وليست لديه أي معرفة دينية إلا ما يبلغه عن ربه عن طريق الوحي .

ومن براهين القرآن على ذلك :

(وما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان)

(وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم)

(وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ...... وما كنت ثاويا في أهل مدين ...... وما كنت بجانب الطور)

لا شك أن محمدا لا دخل له في صياغة النص القرآني ، لا من قريب أو من بعيد ، فالقرآن عظيم وكبير لا يصدر إلا عن العظيم .

ولقد قامت المستشرقة (لورا فاغلير) بالتأكيد على إعجازية القرآن في مؤلفها (دفاع عن الإسلام)[4]فقالت:

(إن معجزة الإسلام العظمى هي القرآن ، الذي انتقل إلينا بالرواية الراسخة غير المنقطعة ، من خلال أنباء تتصف بيقين مطلق .

إنه كتاب لا سبيل إلى محاكاته ، إن كلا من تعبيراته شامل جامع ، ومع ذلك فهو

[3] راجع : تأملات في الدين والحياة . محمد الغزالي . ص ٦٢ ط : دار النهضة مصر القاهرة .

[4] ترجمة : منير البعلبكي ط ٥ دار العلم للملايين بيروت ص ٥٦- ٥٧ .

ذو حجم مناسب ....

أما أسلوبه : فأصيل فريد ، وليس ثمة أيما نمط لهذا الأسلوب في الأدب العربي ....

والأثر الذي يحدثه في النفس البشرية إنما يتم من غير عون عرضي أو إضافي .....

إن آياته كلها على مستوى واحد من البلاغة حتى عندما تعالج موضوعات ..... كموضوع الوصايا والنواهي ....

إنه يكرر قصص الأنبياء وأوصاف بدء العالم ونهايته وصفات الله ......

ولكنه يكررها بنحو مثير إلى درجة لا تضعف من أثرها ، وهو ينتقل من موضوع إلى موضوع من غير أن يفقد قوته ، **إننا نقع هنا على العمق والعذوبة معا)** .

ليست هناك أية قناعة علمية أن محمدا ـ ﷺ ـ له دخل في صياغة النص القرآني ، خاصة وأن تعليمه وتثقيفه نابع من الذات الأعلى (سبحانه) فلم ترد أية معلومة موثوق في صحتها تثبت تأثير شخصية معينة في تشكيل بنيته الثقافية .

لم يؤثر عن المعاصرين لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أمثال من دعوا بالأحناف ، والذين وصفوا بأنهم كانوا يعبدون الله على ملة إبراهيم ـ أية كتابات أو مجلات أوصحف تروي حكما خالدة من الممكن مضاهاتها للقرآن .

وحتى على مستوى النصارى الكائنين في المنطقة ، لم تبرز أية منتوجات للقس ورقة بن نوفل[5].

---

[5] ربما نصف المواقف تجاه " ورقة " بأنها قلقة للغاية ، فأحيانا يرجح البعض أنه ظل نصرانيا ومارس التبشير في المنطقة . حسب لويس شيخو. وأحيانا يتوقف البعض فيه على اعتبار أنه لم يحضر الرسالة ، وأحيانا يعتبره البعض مؤمنا برسالة النبي محمد . صلى الله عليه وسلم . ، وهناك في القرن التاسع من اعتبره صحابيا وألف بشأنه كتابا وهو البقاعي ت ٨٨٥ هـ . أسماه : " بذل النصح والشفقة للتعريف بصحبة السيد ورقة " وفي الحديث : ألف عويد بن عايد المطرفي كتاب " ورقة بن

وعلى ذلك يحق لنا أن نتساءل : هل هناك قيمة للربط بين أمية محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإعجازية القرآن ؟!

هل يؤثر في مستوى القرآن معرفة النبي ـ ﷺ ـ بالقراءة والكتابة ؟!

هل هناك أية مشكلة إذا ما كان النبي ـ ﷺ ـ عالما بالقراءة والكتابة ؟!

أحاول في هذا البحث أن أبرز مشكلة " أمية محمد ـ ﷺ ـ إلى حيز الدرس العلمي ، وما محاولتي هذه إلا استنطاقا للنصوص الواردة في تراثنا الإسلامي ، لم أقصد فيها إثارة مشكلة زائفة إلى حيز الوجود ، بل هي حقيقة بالدرس ، خاصة وأن الكلام في عصرنا الحديث قد كثر بشأنها بوعي ودون وعي ، وأتذكر كلمة قالها " يوسف إبراهيم "– تعليقا على أمية النبي – :

" وهذه المسألة تحتاج إلى بحث كبير ، وموازنة دقيقة لأقوال العلماء ، أرجو أن تحقق ، ويعملوا لها ندوة خاصة تتضح بها جوانب الموضوع " .[6]

وحتى الآن لم تحقق الأقوال ، ولم تعمل ندوة خاصة بالقضية ، كمثل ما يفعل بشأن موضوع " الإسراء والمعراج " مثلا[7] ، فلو لم يكن لهذا البحث من فائدة سوى المناداة والرجاء ، لكفاني ذلك .

وشيء آخر أردت إبرازه من خلال هذا البحث ، وهو عدم خلط الأوراق ، والتفريق بين ما هو قطعي ولا ينبغي الحرث فيه ، وما هو ظني ولا بد من الولوج فيه .

نوفل في بطنان الجنة " وألف زياد منى ورقة بن نوفل والأبيونين ، وقارن ما ورد في (المحبر) ، وما ورد في التراث العربي بشأن ورقة ، فهو قليل للغاية .

[6] راجع : " مع المصاحف : ليوسف إبراهيم النور ص ١٠٨–١١٠ ، نسخة خاصة بمكتبة بنت الشاطئ.

[7] راجع : الكم الهائل في التراث ، مخطوطا ومطبوعا ، بشأن الإسراء والمعراج ، والمؤلفات الحديثة التي تكرر الكلام ، في حين ترك غيره ولم يدرس بعد .

ومسألة " أمية النبي محمد ـ ﷺ ـ من المسائل الظنية ليست قطعية ، ومن قبل قيل بشأنها : " المسألة ليست قطعية بل مستندة ظواهر أخبار آحاد صحيحة ، غير أن العقل لا يحيلها ، وليس في الشريعة قاطع يحيل وقوعها " [8]

وهذه غاية ثانية رمى البحث إلى تحقيقها مع سابقتها .

[8] انظر تفسير القرطبي ج ١٣ ص ٣٥١ ط : دار الشعب سنة ١٣٧٢ هـ

١ـ بين الجهل والأمية والجاهلية

توصم الفترة " فيما قبل الإسلام " بالجاهلية باعتبارات مختلفة، فأحيانا تطلق ويعني بها " التلازم بينها والأمية " ، وأحيانا يراد بها ضد العلم والمعرفة ، وأحيانا يراد بها الجهل الديني ، وأحيانا أخرى يراد بها ضد " الحلم = سيد الأخلاق " فأي هذه الإطلاقات هو المعبر عن حقيقة المصطلح ؟!

هذا ما سنحاول الإجابة عنه في الصفحات التالية .

يمثل مصطلح " الجاهلية " من حيث الاشتقاق اللغوي : مصدرا صناعيا ، مأخوذا من " الجاهلي " نسبة إلى " الجاهل " المشتق من " الجهل " [٩] والجهل في اللغة : نقيض العلم ، ويؤكد الألوسي في " بلوغ الأرب ١٦/١ " على هذا المعنى الخاص بالجهل ، فيقول : (هو عدم العلم ، أو عدم اتباع العلم ، فمن قال خلاف الحق ، عالما أو غير عالم ،فهو جاهل ، ويقول : قال :أصحاب محمد ـ ﷺ ـ : كل من عمل سوءا فهو جاهل ، وإن علم أنه مخالف للحق ، وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل ، فمتى صدر خلافه ، فلا بد من غفلة القلب بمقاومة ما يعارضه ، وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم ، فتصير جهلا

---

[٩] تاريخ الأدب الجاهلي ، على الجندي ، ص٨ ط : مكتبة النصر د . ت .

بهذا الاعتبار).[10]

ويمضي الألوسي مع نظرته فيقول : فالناس قبل مبعث النبي كانوا في أحوا ل جاهلية ، جهلا منسوبا إلى الجاهل ، فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال ، إنما أحدثه لهم جاهل ، وإنما يفعله جاهل ، واستدل الألوسي على ذلك بما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس أنه قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب ، فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام : قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ، وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين .

ومقتضى كلام الألوسي أن العرب قبل الإسلام لم يكن لديهم علم ألبتة ، لكن تتبع اللفظة واستعمالاتها سواء عني بها الإسمية ، اسما للفترة ما قبل الإسلام ، أوعني بها الوصفية فأطلقت على شخوص ما قبل الإسلام وما بعده يجعلنا نميل إلى رأي الأستاذ علي الجندي :

(لم يكن العرب في ذلك الوقت جاهلين جهلا ينافي العلم ، فقد ثبت أنهم كانوا أهل ذكاء ودراية وخبرة ، وكان فيهم أذهان صافية ، ونظرات صادقة في الطبيعة وأحوال الإنسان بما لا يقل عن بعض نظرات الفلاسفة والباحثين والمفكرين ، . ...) .

- الجاهلية : أفعل من يقول قولا ، أو يعمل عملا يتنافى مع علمه . وقد يصدق هذا على عرب ما قبل الإسلام ، وما بعده ، فلا يخص زمان بعينه ، إذ يحدث في جميع الأزمنة ، أن تجد هذا النمط من الناس ، وقد يصدر عن أعقل الناس

---

[10] ويرجع تعليله لقول أصحاب محمد إلى نظرة دينية عاطفية أكثر منها عقلية ، فإن النظرة العلمية تقتضي خلاف ما يعلله الألوسي ، وقديما قيل في الآثار الإسلامية : " خذ بعلمي ولا تأخذ بعملي " ، أكان في نزوع هؤلاء إلى تلك المقولة نزوعا جهلاني ؟! بل هي نظرة أرحب وأوسع ، فربما تكشفت لك الحقائق ، ولا تستطيع أن تسكبها على فعالك الذاتية ، فهل تتكتم على ما تعرفت وعلمت ؟! إن إبراز الحقيقة للآخرين لا يعني التزامنا بها ، خاصة إذا كانت حقيقة علمية .

وأحكمهم ، ألا ترى ما أثر عن عرب الجاهلية من أقوال ، وحكم ونصائح وأعمال ، وترى على الجانب العملي السلوكي : عنفا ، وظلما ، وسيادة للقوة والسلاح و الإسراف إلى حد الإتلاف ، وتقديس ما لا يملك نفعا ولا ضرا .

وفي العصر الحديث ترى أكثر الناس علما وأعظمهم إسهاما في تاريخ الحضارة أكثرهم عنفا وضراوة بالشعوب المختلفة في سطور الضعف ، والولايات المتحدة الأمريكية خير مثال على ذلك .

● الجاهلية : (ضد الحلم = سيد الأخلاق في التصور الإسلامي)

فالجهل هنا يعني : السفه والحمق والتهور وعدم القدرة على ضبط النفس ، ولقد انتشرت هذه الصفات بين عرب ما قبل الإسلام ، فترى العربي (الجاهلي) يثور لأتفه الأسباب ، ويشعل نار الحرب إذا توهم إساءة أوظن ظنا ، ولوخطأ دون أن يتريث أو يتحرى الحقيقة ، ويجسد هذا المعنى قو ل الشاعر (الجاهلي) عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلين

" السفهاء – الحمقى " .

ويصدق هذا المعنى على كثير من الناس في مختلف العصور .

لكن ما المعنى التحديدي للفظة (الجاهلية) التي تخص عرب ما قبل الإسلام ؟

وردت لفظة الجاهلية في النص القرآني في أربعة مواضع :

- (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية)[11] .
- (أفحكم الجاهلية يبغون)[12] .

[11] آل عمران : ١٥٤

[12] المائدة : ٥٠

- (وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية)[13].

- (إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية)[14] .

وبالنظر إلى التفسيرات السابقة ، وإلى ما ورد في النص القرآني ، نرى أن التفسيرات لا تنهض لتحديد المعنى ، فهي تصدق على أي مجتمع سواء كان ما قبل الإسلام أو بعده .

أما الجاهلية في المفهوم القرآني تطلق ويراد بها : الجهل بعبادة الله وفق ما أنزله الله من تعاليم ، أو الانحراف عن تعاليمه ، وهي بذلك لا تشمل الوثنيين فحسب ، بل يدخل في طياتها المنحرفون من أصحاب الديانات السماوية .

أيضا : ليست صفة للعرب ما قبل الإسلام فحسب بل صفة للأمم التي حادت عن الطريق الصحيح ، غير مقرونة بزمن ومكان محددين .

وإذا كان مصطلح الجاهلية لم يبرز إلى الوجود إلا بعد ظهور الإسلام ، فدلالة المصطلح الأصلية تنبثق من المعاني الإسلامية ، والتي أكدت بدورها على أن المصطلح لا يطلق بعمومه على الجهل المعرفي ، خاصة وأن آيات القرآن تدعو إلى التفكر والتدبر ، والاستدلال على الرب الأعلى من خلال صفحات الكون الصامت ، وما عسى أن يفعل ذلك حفنة من الجهلاء .

بل إن الخطاب يتوجه إلى أصحاب حكمة وشعر ومتحنفين ، ويشمل أيضا أصحاب اللوثات والفساد ، وأهل الجاهلية لم يكونوا على المستوى العام (حظاة العقول) . (فما يروى لهم من الشعر يدل على صفاء نفوسهم ..... ووصول شعرهم إلينا وهو على هذه الحال من النضج والكمال يدل على أنهم كانوا قد قطعوا أشواطا كبيرة واستعملوا فيها عقولهم وتفكيرهم وأذواقهم في مجال التعبير والتصوير حتى

---

[13] الأحزاب : ٣٣

[14] الفتح : ٢٦

وصلوا بفنهم إلى هذه الدرجة العليا من الدقة والعذوبة والجمل)"[15].

ثم إن ما تضمنه هذا الشعر ، وما نسب إليهم من نثر : من معان سامية ، وأفكار ناضجة ؛ وإشارات عديدة إلى شيء من العلم ، وبخاصة في الطب يدل على عقلية ميالة إلى التفكير ، قوية الملاحظة ....، أضف إلى ذلك أن كثيرا من هؤلاء العرب اشتهروا بالعقل السديد والرأي الصائب ، وبعد النظر ، وكانت سمتهم الظاهرة الحكمة ، حتى أن العرب اتخذوهم حكاما يستشيرونهم في شئونهم ويحكمونهم في أمورهم ، ومن هؤلاء :

- **الأفعى بن الأفعى الجرهمي**: وهو الذي حكم بين بني مرار في ميراثهم.
- **وأكثم بن صيفي** :حكيم تميم وعالمها بالأنساب .
- **وحاجب بن زرارة** : من مشاهير الفصحاء والبلغاء ، وكان على معرفة تامة بأخبار العرب وأحوالها وأنسابها .
- **والأقرع بن حابس**
- **وهاشم بن عبد مناف**
- **وعبد المطلب بن هاشم**

ولم يقتصر الأمر على الرجال ، بل كان من نساء الجاهلية من اشتهرن بالحكمة وحدة الذكاء وسداد الرأي ، ومنهم :

- **ابنة الخُس الإيادية**
- **صُحر بنت لقمان**
- **وخُصيلة بنت عامر بن الظرب العدواني** [16]

---

[15] تاريخ الأدب الجاهلي - علي الجندي - ص ٩، ١٠

[16] السابق نفسه (بتصرف من ص ٩-١٢)

وكان هؤلاء وأمثالهم يعرفون بين العرب بأنهم الحكماء ، وبهذا يكون الجهل الذي وصم به الجاهليون على وجه العموم : الجهل الديني .

ولعل من سعى إلى تجهيل الجاهلية كان مقصده الأول إظهار عظمة الإسلام[١٧] .

---

[١٧] راجع : " تاريخ العرب قبل الإسلام " للعسلي ص٢٠٦ ، و " عصر الرسالة " لعلي حبيبة ط : مكتبة الشباب .

الكتابة ومعرفة أهل مكة بها

ثمة اعتقاد سائد بأن الكتابة في شبه الجزيرة العربية لم تكن معروفة ، وقد أتى هذا الاعتقاد من خلال الربط بين مفهوم الجاهلية "المرادف لعدم العلم " والكتابة ، وقد رسخ هذا الاعتقاد من خلال الاعتماد على إحصاءات المؤرخين ، من أمثال البلاذري [18] في " فتوح البلدان " [19] الذي قصر العارفين بالقراءة والكتابة في مكة على سبعة عشر شخصا .

لكن هذا لا يبدو مقبولا حين النظر في الأخبار الواردة في الأدبيات ؛ ففي الشعر والشعراء [20] لابن قتيبة خبرا يتحدث عن معرفة منطقة الحجاز للكتابة في وقت مبكر .

وتشير نبية عبود إلى أن مكة من الممكن توقع انتشار المثقفين فيها قبل ظهور الإسلام بوقت كبير؛ ولأن هذه المدينة كانت مركزا دينيا وتجاريا منذ حوالي ٣٥٠ م [21]

---

[18] ناقش إحصاء البلاذري الدكتور خالد العسلي ، وقام باستقراء لما ورد في المدونات القديمة ، والإخباريات ، والأدبيات ،وقام بإحصاء للكتبة في شبه الجزيرة ، ووصل إلى عدد كبير من الكتبة ، سيذكر لاحقا .

[19] ص ٤٥٧

[20] راجع : ص ١٣١،١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٤٢ جزء أول ط شاكر، القاهرة .

[21] انظر : دراسة في أدب المخطوطات العربية ص ١١ . نقلا عن امتياز أحمد " دلائل التوثيق " .

ويُذكر أن وثيقة كتبت بخط عبد المطلب جد النبي ـ ﷺ ـ وجدت في خزانة المأمون[٢٢].

بل وحتى قبل عبد المطلب ،كتب جده الأكبر قصي خطابا إلى أخيه رزاح [٢٣].

ولعل في الإحصاء الذي قام به امتياز أحمد عن السجلات المكتوبة لعرب ما قبل الإسلام ما يؤكد أن العرب كانوا على معرفة جيدة ، وبشكل كبير بالقراءة والكتابة ، فقد وجدنا في الأدبيات (الصحيفة ـ صحف إبراهيم وموسى ـ المجلة ـ مجلة لقمان ـ الروسم ـ التوراة ـ الإنجيل ـ كتاب دانيال ـ كتاب أنوخ ـ كتب أهل الحنيفية والصابئة ـ مدارس)[٢٤].

ويذكر الكتاني في " التراتيب الإدارية "[٢٥] اثنين وأربعين كاتبا للنبي ـ ﷺ ـ ، ولا شك أنهم اكتسبوا صنعة الكتابة قبل الإسلام .

ومن بين المجالات التي كان الرجل يستحق بسببها لقب ـ الكامل ـ مجال الكتابة والقراءة ، كان هذا في (الجاهلية) ، ومن بين هؤلاء الرجل : سعد بن عبادة ، أسيد بن حضير ، أوس بن خولي ، خصير الكتائب ، رافع بن مالك [٢٦].

ومن بين الأدلة الإضافية التي تدل على شيوع القراءة والكتابة في مجتمع ما قبل الإسلام : المعاهدات والاتفاقات بين القبائل ، التي كانت تعلق في الكعبة ـ والنقوش ، كمثل التي أشار إليها الأزرقي ، وأن منها ما كان منقوشا على أحجار الكعبة ، والألواح ، والأحجار ، والهضبات ، وأماكن أخرى [٢٧]

---

[٢٢] انظر " الفهرست " لابن النديم ص٧

[٢٣] انظر : طبقات ابن سعد ص٢٨

[٢٤] راجع : دلائل التوثيق لامتياز أحمد ص ١٥٨-١٦٦

[٢٥] ج١ ص ١١٥

[٢٦] ٢٨، : أخبار مكة للأزرقي : ١/٣٧ ، ١١١،١٤٩ ، ١٦٠ ، ٢٧٠ - ٢/ ٢٢٧، ٢٣٣.

يتضح لنا مما سبق أن الكتابة كانت معروفة في المجتمع المكي الذي بعث النبي محمد - ﷺ - منه .

فلم تكن الجزيرة العربية حديثه عهد بالكتابة ، وإنما كانت الكتابة شائعة في بعض الأنحاء دون غيرها ، وكان هناك نوع من الكتابة هو الشائع في شمالي بلاد العرب وغربيها ، وهو :

الكتابة النبطية ، وكانت لها صورتان :

الأولى : مربعة الحروف ، محكمة الصنع مع صلابة في الشكل ، واستعملت في النقود والأبنية ، وكان لها علاقة مع الخط الآرامي المعروف بـ : الاسطرنجلي .

الثانية : مستديرة الشكل ، خشبية الصنع ، جرى استعمالها غالبا في نسخ المعاملات والصكوك ، وتمثل الكتابة النبطية بصورتيها السابقتين أصل الكتابة العربية ، ويسميها العرب بـ الجزم[28]

*يروي الجهشاري في كتابه (الوزراء) عن كعب الأحبار أنه قال :

روى أن أول من وضع الكتابة العربية (إسماعيل بن إبراهيم)[29] وهذا يعني أن الكتابة العربية قديمة العهد ، ومتزامنة بوجودها مع نشأة مكة الدينية وبيتها المقدس (الكعبة).

لكن الدراسات الحديثة تؤكد أن الكتابة العربية التي عرفها المسلمون قد سبقت

---

[28] لويس شيخو (النصرانية وآدابها) ١٥٢ ط : دار المشرق بيروت ١٩٨٩م

[29] تذكر الروايات أنه : كان ضمن الصور المعلقة على جدران الكعبة صورة للنبي إبراهيم ، وفي يده مجموعة من الأقداح مكتوب على جزء منها (افعل) وعلى آخر (لا تفعل) وكانوا إذا ما أقبلوا على أمر مصيري يأتون بتلك الأقداح و........ راجع أحمد الأحمدين ، الوقوف على الأمية ط مركز الحضارة العربية سنة ١٩٩٧م .

ظهور الإسلام بثلاثة قرون ، وأن الكشوف الأثارية في نجد والحجاز ستدعم هذا الرأي .[30]

وتختلف الروايات في تحديد أول من أدخل الكتابة العربية إلى مكة ، فتذكر بعض المصادر[31] أن بشر عبد الملك الكندي - أخو- أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل وكان نصرانيا ، فتعلم الخط من أهل الحيرة[32] ثم أتى مكة في بعض شأنه ، فرآه سفيان بن أمية بن عبد شمس ، وأبوقيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، يكتب ، فسألاه أن يعلمهما الخط فعلمهما[33] .

وفي رواية أخرى : أن أول من كتب بالعربية من أهل مكة : حرب بن أمية بن عبد شمس - حسب الجهشياري - في حين تذكر رواية أخرى أن حرب تعلم الخط من عبد الله بن جدعان الذي تعلم من الأنبار - حسب السيوطي - وقيل أيضا : إن أول من قدم مكة بالكتاب العربي عبد بن قصي ، جاء به من اليمن فتعلمه أهل مكة[34].

*وعن كيفية وصول الخط العربي إلى شبه الجزيرة العربية ، يروي السيوطي في المزهر ٣٩٠/١:

أن أول من كتب بخطنا هذا ، وهو الجزم : مرامر بن مرة ، وأسلم بن سدرة ، وعامر بن جدرة ، وهم من عرب طيء .... علموه أهل الأنبار ، ومنهم انتشرت الكتابة في العراق والحيرة ، وغيرها ، فتعلمها بشر بن عبد الملك ، وكان له صحبة

---

[30] خالد العسلي ، دراسات في تاريخ العرب ، ج ٢٠٩/١ ط . دار الشئوون الثقافية بغداد سنة ٢٠٠١م

[31] البلاذري : فتوح البلدان ٤٥٣

[32] وهي الموطن الذي يرجح ابن خلدون أخذ مكة عنه الخط .

[33] واعتمد على هذه الرواية ، ورواية ابن قتيبة في المعارف ، وابن عبد ربه في العقد الفريد الأب لويس شيخو ، في تأصيل قضية الكتابة العربية ، ورد أصولها إلى الكتبة النصارى ، راجع الآداب النصرانية ١٥٢ وما بعدها .

[34] راجع : خالد العسلي (بتصرف) ٢١٠/٧.

بحرب بن أمية ، لتجارته عندهم ، فتعلم حرب منه الكتابة ، ثم سافر معه بشر إلى مكة ، فتعلم منه جماعة من قريش قبل الإسلام ، وسمي هذا الخط بـ (الجزم) لأنه جزم أي : قطع من الخط الحميري ، وتعلمه شرذمة قليلة منهم .

وقد اكتشفت كتابات ونقوش حجرية في العصر الحديث ، تؤكد معرفة أهل مكة بالكتابة ، والجزيرة العربية عموما ، ويعد أقدمها تلك الكتابة المكتشفة في (زبد) في جوار الفرات ، التي يرقى عهدها إلى السنة (٥١٢ للمسيح) أي قبل الهجرة بـ : ١٢٠سنة وهي في ثلاث لغات : اليونانية ، والسريانية ، والعربية .

والأثر الثاني : وجد في حران من أعمل بلاد حوران ، مكتوبا باليونانية والعربية ، تاريخه ٥٤ قبل الهجرة ، أي : سنة ٥٦٨ للمسيح .

وهناك كتابتان أخريتان عربيتان ، واحدة بالحرف النبطي ، وجدها في نمارة في الصفا الرحالة الفرنسي (رينه دوسو) وهي مكتوبة على ضريح أحد ملوك الحيرة ، يدعى امرؤ القيس بن عمرو ، تاريخ وفاته ٧ كسلول من السنة ٣٢٨ للمسيح ، الموافق ٧كانون الأول ؛ والأخرى :صحيفة (قران) كتبت على الرق ، من القرن الثالث للهجرة .[٣٥]

أدلة وجود الكتابة في مكة :

١- هناك عدة من القرائن التاريخية ، تؤكد على معرفة أهل مكة بالقراءة والكتابة ، على نطاق واسع ، فالمجتمع المكي اعتمد في بنائه الاقتصادي على العملية التجارية وتوسيعها ، ومجتمع يعتمد التجارة لا بد له من معرفة القراءة والكتابة ، والعمليات الحسابية ، ولقد أشار إلى هذه الطبيعة : الراغب الأصفهاني في (محاضرات الأدباء) وابن عبدربه في (العقد الفريد) . وكيف

---

[٣٥] راجع النصرانية وآدابها ، لويس شيخو ص ١٠٤، ١٥٣، ١٥٦.

وانظر تحليلا لهذه الكتابات في الوقوف على الأمية ، فقرة : وقفة على هذه النقوش ص ١٣-١٦

يجهل المكيون القراءة والكتابة وأغلب معاملاتهم التجارية مع مراكز حضارية متميزة : كالشام والعراق ومصر واليمن ، فلا بد أن يتأثروا بهم ، مع كثرة النزول عليهم ، ومشاركتهم في التجارة ، وبما أن هذه المراكز الحضارية قد شاعت فيها الكتابة والقراءة ، فلا ضير من تعلمها ، وإذاعتها في البيئة المكية .

٢- يذكر ابن هشام في السيرة أنه : (كان عند هبل قداح سبعة كل قدح فيها كتاب)

فلا شك أنهم كانوا يهرعون إلى هذه القداح في الأمور العظيمة ، كالحروب مثلا ، أو الأخذ بالثأر ، أوالأفراح ، ويقومون بالقرعة ، وحينما يأتيهم قدح معين، يقرأون ما ينص عليه الكتاب ، فيعزمون على الفعل أوتركه .

٣- يمثل الشعر الفصيح ثروة عند العرب القدامى ، فتذكر المصادر : أن الشاعر الجيد حينما كان يفوز على أقرانه في قرض الشعر ، كانت جائزته العليا، أن تكتب قصيدته ، وتعلق على الكعبة ، وتحلى بالذهب ، فإن صحت روايات التعليق ، فإنها كانت تعلق ليقرأها الوفود الزائرون لمكة إلى جانب أبنائها الأصليين .

٤- تذكر المصادر : أن هناك كتاب وصية على حجر ، من المغيرة عبد مناف بن قصي ، يوصي بها قريش بالتقوى وصلة الرحم .

كما وجد حجرُ في أحد أركان الكعبة مكتوب عليه ومؤرخ ، وجد عندما هدمت الكعبة بعد أن احترقت .

وذكر ابن عباس ـ رواية ـ (وجود كتاب في المقام .... ، وفي حجر الحجر كتاب) كما وُجدَ في بئر الكعبة كتابان أيضا .

وعبدالله بن جدعان وجد في كهف بأبي قبيس مقبرة ، فيها لوح من زمن جرهم مكتوب فيه عظات وشعر ، مما يؤكد أن الكتابة كانت معروفة بمكة منذ القدم .

ويروي ابن سعد في الطبقات : أن عبد المطلب عقد حلفا مع خزاعة ، فدخلوا دار الندوة فتحالفوا فيها على التناصر والمواساة وكتبوا بينهم كتابا وعلقوه في الكعبة .

ويتسع انتشار في مكة من خلال استعمالها في تدوين المعاملات الشخصية (غير القبلية) ، يظهر ذلك من خلال مافعله الحسن بن مجهور مولى المنصور أعطى لبعض ولد سليمان بن علي بن عبدالله (صك دين) كان لعبدالمطلب بن هاشم كتبه بخطه ..... على ...... حميري من أهل دول صنعاء .

٥- يتضح من خلال استقراء النص القرآني ، اشتماله على ٤٤٩ ذكرا للكتابة والقراءة ومشتقاتها :

(الكتاب ـ الأقلام ـ الكلم ـ القرطاس ـ الألواح ـ المسطور ـ القرآن ـ القراءة ـ الزبر ـ الخط ـ الدرس ـ الرق ـ الصحف ـ المرقوم)

هل إذاكان العربُ أميين (بمعنى جهلهم القراءة والكتابة) بهذه الصورة يصح للقرآن أن يخاطبهم بهذا الكم الهائل من المرادفات التي لا يدرون عنها شيئا؟!

سيصبح الخطاب القرآني غير مجد مع هؤلاء القوم ، ولم يأت القرآن إلا للهداية لا للاضطراب [٣٦].

٦- نقوش الخواتيم ، تدل بشكل واضح على معرفة الكتابة من قبل صناع الخاتم - على أقل تقدير- وقد كان للنبي محمد خاتم ، وكان له نقش خاص به ، وأبوبكر كان له خاتم أيضا ، ولاريب من أنهما لم يبتدعا استخدام الخاتم ،

---

[٣٦] راجع هذا الاستقراء في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن / محمد فؤاد عبدالباقي ، وراجع سرد الآيات القرآنية التي تشتمل على ألفاظ الكتابة في (الوقوف على الأمية) لأحمد الأحمدين من ص ٦١-٧٤.

ولاصنعاه بأيديهما ، بل قام بتصنيعه أرباب هذه الصنعة ، وإن في تحذير النبي من تقليد نقش خاتمه دليل على شيوع استخدام الخاتم ، ومعرفة الكتابة عليها .

٧- من دلائل انتشار الكتابة : احتواء اللغة العربية على كثير من المفردات الكتبية ، مما يؤكد أن العرب لولم يعرفوها ، لما وضعوا لها تلك الألفاظ التي تدل على معانيها ، ومن ذلك :

(القرطاس ـ اللوح ـ الدواة ـ الصحيفة ـ الكراس ـ السفر ـ الجلة ـ المزبر ـ الطومار ـ الرق ـ الرقاع ـ الكاغد) .

٨- تظهر من الدلائل السابقة معرفة أهل مكة بالكتابة والقراءة بل إن الأمر تعدى هذه المرحلة الابتدائية ، فنهض البعض للثقافة الموسوعية ، والنهل مما عند الآخرين ، وإن اختلفت اللغة ، فظهرت الكتب المترجمة والأسفار القديمة التي اشتملت على تعاليم الديانات السابقة .

- فعرف ورقة بن نوفل بقراءته للكتب القديمة ، وطلب الدين المسيحي وتنصر ، وصار مستحكما في النصرانية ، وكان يكتب بالعربية ، نقلا عن الأصل العبري السرياني الآرامي .

- خالد بن عرفطة ، كان قد حصل على نسخة من كتاب النبي دانيال ،وقام بترجمتها ، ونسخها للعربية ـ حسب الخطيب البغدادي ـ وقدلاقت هذه النسخة انتشارا وشيوعا في عهد عمر بن الخطاب ، إلى حد أن عمر أقلقه هذا الأمر ، فقام في الناس خطيبا ، آمرا إياهم بأن يأتوا بما عندهم من كتب ، وقام بتعنيف ناشر الكتاب بينهم [٣٧].

---

[٣٧] لا يظن في موقف عمر هنا حدا للثقافة ، وانقطاعا عن الآخرين ، وركونا إلى معارف واحدة ، لكنه خشي على الناس الاشتغال بما لا يتقنون ؛ لأن عمر في حياة النبي محمد ﷺ فعل مثلما فعل الناس ، فغضب النبي من فعله ....

- وشاهدنا هنا كثرة الكتب عند القوم في هذه الفترة ، وقيام أحدهم بالترجمة وهو خالد بن عرفطة .

- عبد الله بن عمرو بن العاص ، كان مهتما بكتب الأديان السابقة من (توراة وإنجيل) وروى عنه الطبري في تاريخه : أنه قد قرأ كتاب دانيال.

- النضر بن الحارث : كان قد لازم الحيرة ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس ، وأحاديث رستم ـ حسب سيرة هشام ـ وكان عنده كتاب من الأدب الفارسي ـ حسب الماوردي في نصيحة الملوك ـ وأساطير الأولين يقصها على أهل مكة .

- عبيدالله بن جحش الأسدي ، كان قد قرأ الكتب ، فمال إلى النصرانية ، مما يدل على اطلاعه على هذه الكتب وتدبرها ، وأن هذه الكتب كانت شائعة عند أهل مكة .

- لم يقتصر الأمر على الرجال ، بل تعدى إلى النساء ، فاطلع بعضهم على كتب الأقدمين ، كقبيلة بنت نوفل ، وفاطمة بنت مر الخثعمية .[٣٨]

يظهر مما سبق أن مكة عرفت العديد من كتب الأقدمين ، منها : مجلة لقمان ، وكتاب دانيال ، والتوراة ، والإنجيل ، وكتب الأساطير ، والأدب الفارسي .

عن الموقف الإسلامي من الكتب القديمة ، راجع مناقشات حول الموضوع أوردها وحللها البقاعي في كتابه : " الأقوال القويمة في حكم النقل من الكتب القديمة " .

[٣٨] راجع لمزيد التفصيل ، العسلي : ـ دراسات في تاريخ العرب ، فصل الأمية ؛ ودلائل التوثيق لامتياز أحمد.

الكتبة من أهل مكة قبل الإسلام وفي عصر النبي محمد ﷺ

ذكر البلاذري في فتوح البلدان أن الإسلام جاء وفي مكة سبعة عشر نفرا فقط هم الذين يقرأون ويكتبون ، واستدرك آخرا ، فكانوا ثمانية عشر ، وذكر قليلا من النساء بعضهم تقرأ ولا تكتب .

واعتمد كثير ممن يرون تجهيل أهل مكة ، وانعدام المعرفة عندهم ، على رواية البلاذري ، وخلصوا منها إلى ندرة القراءة والكتابة في هذا المجتمع .

غير أن نظرة بسيطة إلى إحصاء الواقدي للكتبة تدل على خطأ البلاذري في إحصائه ، أضف إلى ذلك الظروف والملابسات التي كانت تحيط بهذا المجتمع ، ترى أن هذا الإحصاء لا يعدو التمثيل ببعض الكتبة فحسب .

وإليك قائمة إجمالية أعدها الدكتور خالد العسلي في كتابه (دراسات في تاريخ العرب)[٣٩] :

---

[٣٩] ص ٢١٩-٢٢٧ ، وراجع أحمد الأحمدين في الوقوف على الأمية ص ١٢٢-١٣٧.

أولا : الرجال:

١- سفيان بن أمية بن عبد شمس ـ من بني أمية .

٢- حرب بن أمية بن عبد شمس ـ من بني أمية .

٣- أبوسفيان بن أمية بن عبد شمس ـ من بني أمية .

٤- سفيان بن حرب بن أمية ـ من بني أمية .

٥- أبوسفيان صخر بن حرب بن أمية ـ من بني أمية .

٦- معاوية بن أبي سفيان ـ من بني أمية ـ كاتب وحي .

٧- يزيد بن أبي سفيان ـ من بني أمية .

٨- أسيد بن أبي العيص ـ من بني أمية .

٩- عثمان بن عفان ـ من بني أمية ـ كاتب وحي .

١٠- خالد بن سعيد بن العاص ـ من بني أمية ـ كاتب وحي .

١١- أبان بن سعيد بن العاص ـ من بني أمية ـ كاتب وحي .

١٢- عمرو بن سعيد بن العاص ـ من بني أمية .

١٣- الحكم بن سعيد بن العاص ـ من بني أمية .

١٤- عتاب بن أسيد ـ من بني أمية .

١٥- الوليد بن عقبة بن أبي معيط ـ من بني أمية .

١٦- معيقيب بن أبي فاطمة الدوسي ـ حليف سعيد بن العاص

١٧- عبدالله بن جحش الأسدي (أسد بن خزيمة) ـ حليف بني أمية ـ

١٨- عبيدالله بن جحش الأسدي ـ حليف بني أمية .

١٩- سعيد بن القشب الأزدي ـ حليف بني أمية .

٢٠- الحارث بن كلدة الثقفي، وابنه النصر - حلفاء بني أمية.

٢١- عبد بن قصي بن كلاب.

٢٢- المغيرة بن قصي.

٢٣- عبدالمطلب بن هاشم - من بني هاشم.

٢٤- عبدالله بن عبدالمطلب - من بني هاشم.

٢٥- أبوطالب عبد مناف بن عبدالمطلب - من بني هاشم.

٢٦- أبولهب بن عبدالعزى بن عبدالمطلب - من بني هاشم.

٢٧- الزبير بن عبدالمطلب - من بني هاشم.

٢٨- المقدم بن عبدالمطلب - من بني هاشم.

٢٩- الحارث بن عبدالمطلب - من بني هاشم.

٣٠- العوام بن عبد المطلب - من بني هاشم.

٣١- الحمزة بن عبدالمطلب - من بني هاشم.

٣٢- عبدالكعبة بن عبدالمطلب - من بني هاشم.

٣٣- حجل (المغيرة بن عبدالمطلب) - من بني هاشم.

٣٤- العباس بن عبدالمطلب - من بني هاشم.

٣٥- عبدالله بن العباس - من بني هاشم.

٣٦- عقيل بن أبي طالب - من بني هاشم.

٣٧- علي بن أبي طالب - من بني هاشم.

٣٨- أسامة بن زيد بن الحارثة - مولى الرسول ﷺ.

٣٩- أبوحذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف - عبد مناف.

٤٠- جهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف ـ عبد مناف .

٤١- جبير بن مطعم بن علي بن نوفل بن عبد مناف ـ عبد مناف.

٤٢- نافع بن ظريب بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف .

٤٣- أبوالروم منصور بن عبد شرحبيل ـ من بني عبدالدار .

٤٤- مصعب بن عمير بن هشام ـ من بني عبدالدار .

٤٥- منصور بن عكرمة بن عامر ـ من بني عبدالدار .

٤٦- بغيض بن عامر بن هاشم ـ من بني عبدالدار .

٤٧- النضربن الحارث ـ من بني عبدالدار .

٤٨- عياش بن أبي ربيعة بن عمرو بن المغيرة ـ من بني مخزوم.

٤٩- المهاجر بن أبي أمية المخزومي ـ من بني مخزوم .

٥٠- عبدالله بن أبي أمية ـ من بني مخزوم .

٥١- الوليد بن الوليد ـ من بني مخزوم .

٥٢- خالد بن الوليد ـ من بني مخزوم .

٥٣- أبوجهل عمرو بن هشام ـ من بني مخزوم .

٥٤- عكرمة بن أبي جهل ـ من بني مخزوم .

٥٥- أبوسلمة بن عبد الأسد المخزومي .

٥٦- عمار بن ياسر ـ مولى بني مخزوم .

٥٧- علي بن نوفل بن أسد ـ من بني أسد بن عبدالعزى .

٥٨- الزبير بن العوام ـ من بني أسد بن عبدالعزى .

٥٩- ورقة بن نوفل ـ من بني أسد بن عبدالعزى.

٦٠- حاطب بن أبي بلتعة ـ حليف الزبير .

٦١- أمية بن خلف ـ من بني جمح .

٦٢- صفوان بن أمية بن خلف ـ من بني جمح .

٦٣- محمية بن جزء ـ حليف بني جمح

٦٤- أبوبكر الصديق ـ من بني تميم .

٦٥- عبدالله بن جدعان ـ من بني تميم .

٦٦- طلحة بن عبيدالله ـ من بني تميم .

٦٧- عبدالله بن أبي بكر ـ من بني تميم .

٦٨- عبدالرحمن بن أبي بكر ـ من بني تميم .

٦٩- عامر بن فهيرة ـ مولى أبي بكر .

٧٠- سعيد بن زيد بن عمرو ـ من بني عدي .

٧١- عمر بن الخطاب ـ من بني عدي .

٧٢- عبدالله بن عمر ـ من بني عدي .

٧٣- أبوقيس بن عبد مناف ـ من بني زهرة .

٧٤- عبدالرحمن بن عوف ـ من بني زهرة .

٧٥- سعد بن أبي وقاص ـ من بني زهرة .

٧٦- مخرمة بن نوفل ـ من بني زهرة .

٧٧- عبدالله بن الأرقم ـ من بني زهرة .

٧٨- أزهر بن عبدعوف ـ من بني زهرة .

٧٩- الأخنس بن شريق الثقفي ـ حليف بني زهرة .

٨٠- خباب بن الأرت - حليف بني زهرة .

٨١- أبوبصير عتبة بن أسيد الثقفي - حليف بني زهرة .

٨٢- العاص بن وائل بن هاشم - من بني سهم .

٨٣- عمرو بن العاص - من بني سهم .

٨٤- هشام بن العاص - من بني سهم .

٨٥- عبدالله بن عمرو بن العاص - من بني سهم .

٨٦- عبدالله بن الزبعري - من بني سهم .

٨٧- عبدالله بن سعد بن أبي سرح - من بني عامر .

٨٨- سهيل بن عمرو بن عبد شمس - من بني عامر .

٨٩- حاطب بن عمرو بن عبد شمس - من بني عامر .

٩٠- عبدالله بن سهيل بن عمرو - من بني عامر .

٩١- مكرز بن حفص بن الأضيف - من بني عامر .

٩٢- حويطب بن عبدالعزى - من بني عامر .

٩٣- سليط بن سليط العامري - من بني عامر .

٩٤- أبوعبيلة عامر بن الجراح الفهري - من بني عامر .

٩٥- شرحبيل بن حسنة الطانجي - حليف قريش .

٩٦- العلاء بن الحضرمي - حليف قريش.

٩٧- يسار - عبد من عين تمر .

٩٨- خير - عبد من عين تمر .

٩٩- عبدالله بن خلف الخزاعي أبوطلحة الطلحات .

١٠٠- يعلى بن أمية - حليف بني نوفل بن عبدمناف .

* * *

ثانيا : النساء:

١٠١- قتلية بنت نوفل - أخت ورقة بن نوفل .

١٠٢- فاطمة بنت الخطاب - أخت عمربن الخطاب .

١٠٣- أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة - زوجة النبي محمد ﷺ.

١٠٤- إيشاء بنت عبدالله العدوية .

١٠٥- حفصة بنت عمر بن الخطاب - زوجة النبي محمدﷺ.

١٠٦- أم كلثوم بنت عقبة .

١٠٧- عائشة بنت سعد.

١٠٨- كريمة بنت المقداد.

١٠٩- عائشة بنت أبي بكر - زوجة النبي محمد ﷺ.

١١٠- أسماء بنت مخربة أم أبي جهل .

١١١- فاطمة بنت مر الخثعمية .

١١٢- فاطمة - من بني أسد بن خزيمة .

١١٣- ليلى العدوية .

أمية محمد ﷺ

هي مسألة قديمة حديثة ، قديمة في طرحها فقد أدلى بالقول الأول فيها المعاصرون لمحمد ﷺ من أهل مكة، ورفضوا أن يؤمنوا بما يقوله وما يدعوهم إليه ، باعتباره مارقاً عن دينهم ، حاطا من شأنهم ، وعلل القرآن نظرهم (حسدا من عند أنفسهم) فالقرآن الذي أتى به محمد ماهو إلا مجموعة من الأساطير التي افتعلها بناء على تعلمه من الآخرين الذين التقى بهم في رحلاته التجارية .

وحديثا صيغت المسألة ـ حسب التصور المسيحي ـ [40] أن محمدا كان ضمن أحناف مكة الباحثين عن الحقيقة الإلهية ، الذين ربأوا بأنفسهم عن عبادة الأوثان ، وكان كثيرا ما يذهب إلى (كهف = غار) ليمارس فيه التأملات الكونية وبعض الطقوس الروحانية ، وهنا شاءت الأقدار أن يقابل أكبر القساوسة ، والذي كان يقطن مكة ويمارس التبشير بالنصرانية ، وهو : ورقة بن نوفل ، فجلس إليه يطلب العلوم الدينية ، وهنا تلمس فيه ورقة اجتهاد الطالب ، فعلمه وساعده على الخروج من لوثة الأوثان ، وأحب محمد أن يوطد علاقته بورقة فطلب الزواج من خديجة ابنة

---

[40] يراجع في ذلك كتاب " الهداية " الصادر سنة ١٩٠٣م لمجموعة من المؤلفين ، وهو في أربع مجلدات ، المقصد الرئيس منه الطعن على الإسلام ، والتعسف واضح فيه منذ البداية ، وقد رد على كثير من شبهه ، د/ محمد توفيق صدقي ، في مؤلفاته ، ورد عليه صاحب " السيف الصقيل" وغيرهم كما يراجع الكتاب الصادر حديثا تحت عنوان " قس ونبي " والكتاب المناهض له لـ حسني يوسف الأطير.

عمه ، فتزوجها بمباركة القس وكانت هي الأخرى مسيحية[41] فساعدته على .... ولما مات ورقة انفرد محمد بالمنطقة ليؤسس حزبه الجديد الذي عرف فيما بعد بـ الإسلام ....!!

وهكذا تصاغ القصص ، وتصدق في غيبة العقول ، ضاربة عرض الحائط بكل الحقائق التاريخية !!

أمية النبي ﷺ في الفكر الإسلامي (قديما)

بحسب التصور الإسلامي العام ، لم تكن مسألة أمية محمد ﷺ محل خلاف ، بل ظل وسيظل راسخا في أذهان المجموع أن النبي قبل بعثته وبعدها ظل أميا جاهلا بالقراءة والكتابة ؛ لكن الباحث في التراث الإسلامي سيجد الأمر على خلاف ذلك ، وسيجد مسألة الأمية ، محل نقاش وبحث بين العلماء ، وبالأخص مجموعة علماء الأندلس .

لذلك فإني أرى أنه من المفيد أن نلقي نظرة عامةعلى الموضوع برمته.

** يقصر الجمهور معنى كلمة أمي على الذي لا يقرأ ولا يكتب ، فترى المرادف للكلمة : الجهل بالقراءة والكتابة عند الأصوليين ، وعلماء الفقه ، والمفسرين على السواء ؛ على حين أن اللفظة في كتب اللغة يرجع اشتقاقها أحيانا إلى كلمة (أمة) وأحيانا إلى كلمة (أم) وأحياناً كلمة (أمم) ، ولكن الجمهور العام قرر أن يعطي للفظة (أمي) معنى الجهل المعرفي بالقراءة والكتابة ليؤكد على صفة الإلهية للقرآن .

ومن هنا اعتبر التفسير الأكثر اعتمادا لدى مفسري القرآن واللغويين هو ماجاء في لسان العرب عند تعرضه للفظة (أمي):

محمد نبي الله وصف بأنه أمي ؛ لأن الأمة العربية لم تكن تعرف القراءة والكتابة ،

---

41 يراجع عن السيدة خديجة ، الكتاب الذي صدر حديثا لـ سلوى صالح بالحاج " دثريني يا خديجة " نشرة دار الطليعة بيروت .

فأرسل الله لهم رسولا من أنفسهم لا يقرأ ولا يكتب ، وكانت هذه إحدى معجزاته ، حيث كان يتلو عليهم الكتب مباشرة من الوحي الذي يبلغه عن الله عزوجل دون تغيير أو تبديل كلماته .

بينما كان الخطيب من العرب يعتمد على الإضافة أو الحذف في أي خطاب يعيده مرة أخرى ، ولقد اقتضت حكمة الله ، أن يظل كتابه محفوظا ، لا دخل لنبيه فيما نزل منه [42]، وأخبره عن الذين أرسلهم قبله ، وهو ما يتميز به عنهم ، وأنزل عليه بمناسبة ذلك قول الله عز وجل :

(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذًا لارتاب المبطلون) [43].

وعن العلة في جعل النبي محمد أميا لا يكتب ولا يقرأ ـحسب هذا التصور ـ يقول بعض المتكلمين : ـ

لينفرد الله بتعليمه الفقه ، وأحكام الشريعة ويقصره على معرفة مصالح الدين دون ما تتباهى به العرب من قيافة الأثر والبشر .. وبالخيل والأنساب والأخبار ......وتكلف قول الشعر ، ليكون إذا جاء بالقرآن العظيم ، وتكلم بالكلام العجيب كان ذلك أدل على أنه من الله .

وزعم أن الله لم يمنعه معرفة آدابهم وأخبارهم وأشعارهم ليكون أنقص حظا من الكاتب الحاسب ، والخطيب الناسب ، ولكن ليجعله نبيا ، وليتولى من تعليمه ما هو أزكى وأنمى فإنما نقصه ليزيده ، ومنعه ليعطيه ، وحجبه عن القليل ليجلي له الكثير.

---

[42] لقد أكد النص القرآني على حقيقته وإلهيته التي لا دخل لمحمد ولا لغيره فيه ، حتى ولوكان محمد خطيبا بارعا أوكاهنا حاذقا ، فما يستطيع أن يتدخل بلفظة واحدة من عنده ، وكيف يفعل ذلك وقد هدده ربه بقوله : " ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين " ، وأحسب أن المقارنة بين محمد والخطباء والشعراء لا قيمة لها ، فمحمد رسول من عند الله يبلغ كلماته إلى بني الإنسان ، فوجه المقارنة غير وارد .

[43] العنكبوت :٤٨

لكن هذا التعليل لايعجب الجاحظ ، فيخطأ صاحبه ، مع فرض حسن النية فيه ، لأنه لم يرد بكلامه إلا الخير ، لكن تعليل الجاحظ من الأهمية بمكان ، لاشتماله على تقريرات بخصوص أمية محمد ، فيقول معقبا على كلام السابق:

ولو قل : إن أداة الكتابة والحساب وقرض الشعر ورواية جميع النسب قد كانت تامة وافرة ، مجتمعة كاملة ، ولكنه صرف تلك القوى ، وتلك الاستطاعة إلى ماهو أزكى بالنبوة ، وأشبه بمرتبة الرسالة ، ولو كان احتاج إلى الخطابة لكان أخطب الخطباء وأنسب من كل ناسب ، وأقيف من كل قايف .

ولو كان في ظاهره أنه كاتب حاسب ، وشاعر ناسب ، ....ثم أعطاه الله برهانات الرسالة وعلامات النبوة ماكان ذلك بمانع من إيجاب تصديقه وإلزام طاعته ، والانقياد لأمره على سخطهم ورضاهم ومكروههم ومحبوبهم .

ولكنه أراد أن لا تكون للقلوب عرجة عن معرفة ما جاء به ، ولا يكون للناعب متعلق عما به إليه ، حتى لا يكون دون المعرفة بحقه حجاب ، وإن رق ، وليكون ذلك أخف في المؤونة ، وأسهل في المحنة ، فلذلك صرف نفسه عن الأمور التي كانوا يتكلفونها ويتنافسون فيها .

فلما طال هجرانه لقرض الشعر وروايته صار لسانه لا ينطق به ، والعادة توأم الطبيعة .

فأما في غير ذلك فإنه كان أنطق من كل منطيق ، وأنسب من كل ناسب .... وكانت الآلة أوفر والأداة أكمل ، إلا أنها كانت مصروفة إلى ما هو أرد .[44]

على الرغم من أن النص مسلق من قبيل التأكيد على أمية محمد بمعنى جهله للقراءة والكتابة ، إلا أنه يؤكد على وجود هذه الصفة فيه ، ولم يفعل محمد بها شيئا

---

[44] راجع : الاقتباس من القرآن الكريم . لأبي منصور الثعالبي . الجزء الأول ٨٢-٨٤ ، تحقيق د/ ابتسام مرهون الصفار ، ط : الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سلسلة الذخائر (١٠٧).

بل صرفها إلى ما هو أهم ، وهجر بإرادته الشعر ورواية الأنساب إلى شيء هام وهو تبليغ رسالة الإسلام إلى أهل الأرض .

وتمكينا للنظرة السابقة للأمية ، اعتبر التقليد الإسلامي : الجهل بالقراءة والكتابة ، بالنسبة للنبي محمد ﷺ ، ليست مذمة ، بل هي ميزة ومصدر عظمة ! إقامة للحجة ودرءا للشبهة ، وحتى لا يكون للمعارض لمحمد أدنى ريب في إلهية رسالته .

ويؤكد ذلك ما ترويه كتب الأدب من محاورة دارت بين الرشيد وأحد الشعراء ، وصفه فيها الرشيد بالأمية ، فكان على الفور أن عقد الشاعر وجها للشبه بين أميته وأمية محمد ﷺ فغضب الخليفة لذلك ومن ثم قال له :

لقد زدت جهلا ، فإن الأمية منك مذمة ومن النبي مكرمة !

يضاف إلى ذلك أن نقاشا دار بين العلماء ، وحكته كتب الآداب :

هل إقامة الخط وحسن تصوير الكتابة صفة مدح ومنحة يستحق الإنسان التعظيم عليها ؟

هل ما يفعله الخطاط له قيمة يرتفع بها ماديا ؟

وكانت الإجابة أنه لا قيمة لذلك فقد يكون خطاطا وهو أجهل الناس ، وليس للكتابة ميزة في نفسها ، والغرض من تسفيه هذه الصفة ، أنها لو كانت منحة ما صرفها الله عن نبيه محمد باعتباره أفضل الأنبياء .

وحتى يثبت الإسلاميون انعدام المنحة في هذه المسألة قارنوا بين أمية محمد وأمية داود [٤٥] ـ أحد أنبياء بني إسرائيل ـ حتى يقال لو كانت هذه صفة نقص في نبينا فقد

---

[٤٥] راجع " الدين والدولة في إثبات نبوة محمد ﷺ " لعلي بن ربن الطبري ، فصل الأمية ، نشرة منغانا سنة ١٩٢٣م

نسب أحد أنبيائكم إليها .

وترجع المحافظة على هذه النظرة ، والتأكيد على أمية محمد ، وعدم جعل المسألة محل نقاش ـ في التصور العام ـ إلى النظر إلى قوله تعالى : " إذا لارتاب المبطلون " فالعلة الرئيسية هي الخوف من الريبة والشك التي ستقع في قلوب الملقى إليهم وحي الله ؛ لأنهم سيشكون في رسالة محمد ، ويحتجون بأنه كتب من عنده القرآن .

وفي هذه النظرة إغفال للتحدي القرآني نفسه دونما شعور ، فقد أكد القرآن نفسه على إلهيته ، وتحدي العالم كله بقوله : (قل فأتوا) فلماذا يحافظ على التقرير ، وينسى التحدي ؟!

إلا أنه قد حدث تحول كبير لهذه النظرة في القرن الخامس الهجري من قبل أحد علماء الأندلس وكبار الفقهاء والمحدثين وهو أبوالوليد الباجي ت ٤٧٤ هـ فقد رفض التقليدية ونزع إلى الاجتهاد ، ومناقشة النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ، التي تخص مسألة الأمية ، وقرر في نهاية الأمر أن النبي كتب وقرأ بعد نزول القرآن وإقامة الحجة ، لكنه رأى هذا الرأي على سبيل الإعجاز الإلهي ، والمنحة الربانية ، والتي أتته وقت كتابة صلح الحديبية .

لكن هذه المحاولة لم ترض علماء عصره ، فهب كثير من متفقهة الأندلس ، لنصرة التقليد الإسلامي المحافظ ، وتكفير الرجل [٤٦] حتى يخرج برأيه هذا من حظيرة الإسلام ، فقد أنكر ما تواتر من امية محمد.

لكن الخليفة في وقته لم يعجبه ذلك ، فأمر بعقد مناظرة بين الباجي والمعارضين له ، وكانت ثمرة المناظرة : نصرة الباجي ، وخطه لرسالة في تحقيق مذهبه هذا .

وأتى في القرن السابع من تبني نظرته ودافع عنه وهو القرطبي المفسر عند تعرضه

---

[٤٦] حتى قال أحدهم شعرا فيه :

عجبا لمن شرى دنيا بآخرة   وقال إن رسول الله قد كتبا !!

لتأويل قوله تعالى :

(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون)

وروى عن شيخه بخصوص مسألة الأمية :أن هذه المسألة لا يصح تكفير أحد عليها ، والسبب:

أنها ليست قطعية ، بل مستندها ظواهر أخبار آحاد صحيحة ، غير أن العقل لا يحيلها ، وليس في الشريعة قاطع يحيل وقوعها .

وأظن أن النظرة التأصيلية من شيخ القرطبي كانت أمام عين الألوسي المفسر حينما تبنى قول الباجي ، وقال إن محمد كتب وقرأ ، وذلك ـ أيضا ـ على سبيل الإعجاز.

وعلى الرغم من تبني الألوسي ـ متأخرا ـ القول بنظرية الباجي ، إلا أن هذا القول لم يلق انتشارا على المستوى العام للفكر الإسلامي ، فلا نعلم أحدا من مفسري القرآن (السنة) قال بها عدا الألوسي ، وعلى سبيل المثال نجد الرازي ت ٦٠٦ هـ في التفسير الكبير عند تعرضه لتأويل معنى (الأمي)[٤٦] يجعل أمية محمد نوع معجزة من معجزاته ، ووجه الإعجاز في ذلك :

١- أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ عليهم كتاب الله تعالى منظوما مرة بعد أخرى من غير تبديل ألفاظه ، ولا تغيير كلماته ، والخطيب ..... ثم إنه ﷺ مع أنه ما كان يكتب ، وما كان يقرأ كان يتلو كتاب الله من غير زيادة ولا نقصان فكان ذلك من المعجزات .

٢- أنه لو كان يحسن الخط والقراءة لصار متهما في أنه ربما طالع كتب الأولين فحصل هذه العلوم من تلك المطالعة ، فلما أتى بهذا القرآن العظيم المشتمل على العلوم الكثيرة من غير تعلم ولا مطالعة كان ذلك من المعجزات

---

[٤٦] راجع تفسير سورة الأعراف ،آية : ١٥٧ ج ٧ ص ٣٠٧ ط : دار الغد العربي سنة ١٩٩٢م .

وهذا هو المراد من قوله تعالى : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) .

٣- إن تعلم الخط شئ سهل ، فإن أقل الناس ذكاء وفطنة يتعلمون الخط بأدنى سعي ، فعدم تعلمه يدل على نقصان عظيم في الفهم ، ثم إنه تعالى آتاه علوم الأولين ، والآخرين وأعطاه من العلوم والحقائق مالم يصل إليه البشر ، ومع تلك القوة العظيمة في العقل والفهم جعله بحيث لم يتعلم الخط بين هاتين الحالتين المتضادتين جاريا مجرى الجمع بين الضدين ، وذلك من الأمور الخارقة للعادة وجار مجرى المعجزات .

لم يبعد الرازي كثيرا عن التصور العام ، فظل محافظا عليه ـ رغم رسوخ قدمه في علم الكلام ـ وعلى الرغم من إقراره بأن عدم تعلم الخط يدل على نقصان عظيم في الفهم ، ومن المفترض ـ إسلاميا ـ أن ينزه عنه أكمل الخلق محمد.

كان هذا عرضا إجماليا للمسألة يعقبه البيان .

* * *

بعد هذا العرض العام للتصور العام ، الخاص بمسألة الأمية ، أرى أنه لابد أن نورد بين يدي القارئ الكريم ، الاحتمالات التي يصل إليها الباحث في التراث بشأن الأمية :

١- أن النبي ﷺ لم يكتب قط ، ولم يقرأ بالنظر إلى كتاب .

٢- أنه لم يمت حتى كتب وقرأ.

٣- أنه كتب مباشرة بيده (في أيام بعثته ﷺ) .

٤- أنه كتب وقرأ قبل البعثة وبعدها.

أولا : محمد لم يقرأ ولم يكتب مطلقا

تبنى الجمهور العام من الإسلاميين المذهب القائل ، بأن محمدا كان أميا جاهلا بالقراءة والكتابة ، واستدل على ذلك بمايلي :

١- عاش محمد في مجتمع مكة فترة طويلة قبل البعثة ، اختلط فيها بالمجتمع ، وكان ذا احتكاك بأهله على المستوى العام ، وكان من الشخصيات المعروفة، حتى إنه وصف بصفتين من صفات الخلق الحميد (الصدق والإمانة) ، وكان كما الشمس لا يخفى حاله على أحد ، وإذا كانت شخصيته معروفة ثم أتى برسالة إلهية ، فيما بعد أراد إبلاغها إلى أهله ، فلو كان قارئا كاتبا لما خفي ذلك على قومه ولاشتهر عنه كما عرفت جميع أحواله .

٢- تؤكد الآثار اللغوية ، والقرآنية ، والحديثية على أن محمدا لم يقرأ ولم يكتب.

اللغة:

وصف محمد بالأمية ، وهي تعني في لغة العرب :

- الذي لا يكتب .
- الذي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب .
- الغافل الجاهل .



- العيي الجافي القليل الكلام .

وينسب الأمي في اللغة :

١- إلى الأم ، فالأمي من لا يكتب على الحال التي ولدته عليها أمه .
،الأمي : بقى بلا علم كما ولدته أمه .

٢- الأمي : مأخوذ من أمة ، وسقطت التاء في النسبة ، كما سقطت في المكي والمدني ..

والأمي منسوب إلى الأمة الذين لم يكتبوا لكونه على عادتهم ، كقولك عامي على عادة العامة .

فالأمي منسوب إلى أمة العرب ، لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة أو عديمة ، ومعظمهم لا يكتبون .

٣- الأمي مأخوذ من أمته بمعنى خلقته ، والمراد (الجبلة) ، ويؤكد على هذا المعنى الفيروزآبادي [٤٧].

الأمي : من لا يكتب أو من على خلقه الأمة ، لم يتعلم الكتاب ، وهو باق على جبلته .

والقرآن :

الأدلة القرآنية التي تنفي عن محمد ﷺ القراءة والكتابة :

١- (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون)[٤٨]. فالآية تنفي على الدوام القراءة ، والكتابة أيضا حينما يضم إلى النفي (تخطه بيمينك) وخص اليمين بالذكر ـ حسب البيضاوي ـ زيادة في التصوير للمنفي ..

---

[٤٧] المقاييس : ١/ ٢٨

[٤٨] العنكبوت : ٤٨



٢- يضاف إلى هذه الآية جميع الآيات الـتي وردت فيهـا لفظـة (أمـي ، أميـون) لأنها تعني الجهل بالقراءة والكتابة ونسبتهم إلى محمد .

الحديث :

الآثار النبوية التي تنفي القراءة والكتابة عن محمد :

١- ذكر البخاري في باب الجزية ، باب المصالحة على ثلاثة أيام ، أو وقت معلوم : حدثنا إبراهيم بن يوسف بن أبـي إسـحاق قـال : حـدثنا أبـي عـن أبـي إسحاق ، قال : حدثنا البراء ـ رضي الله عنه ـ : أن النبي ﷺ ...... إلى أن قال : فأخذ يكتب الشرط بينهم علي بن أبي طالب ، فكتب هذا ما قاضى عليـه رسول الله ﷺ فقالوا : لو علمنا أنك رسول الله لم نمنعك ولتبعنـاك ، ولكـن اكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله . فقال : أنا محمـد بـن عبـدالله ، وأنا والله رسول الله ، قال : وكان لا يكتب ، قال : فقال لعلي : امـح رسـول الله ، فقال علي : والله لا أمحاه أبدا ، قال : أرنيه ، قـال : فـأراه إيـاه ، فمحـاه النبي ﷺ بيده .

ففي طلب النبي لعلي بأن يريه الكلمة (رسول الله) دليـل علـى جهلـه المعـرفي بالقراءة والكتابة .

٢- وفي رواية لهذا الحديث (في صحيح مسلم ـ كتاب الجهـاد والسـير ـ صـلح الحديبية) .

قال رسول الله لعلي : اكتب : (محمد بن عبدالله) أي مكان رسـول الله ، ويؤخـذ منه أنه أمر غيره بالكتابة مكان الممحى (رسول الله) وهذا مما يدل على عدم معرفته الكتابة .

الأمي
وتعليق على الاتجاه العام

وردت كلمة (الأمي) بصيغة المفرد في القرآن الكريم مرتين في سورة الأعراف داخل آيتين هما :

١- ((الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ، الذي يجدونه مكتوبا في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم)).

٢- ((قل يا أيها الناس : إني رسول الله إليكم ، جميعا ، الذي له ملك السماوات والأرض ، لا إله إلا هو يحيي ويميت ، فآمنوا بالله ، ورسوله ، النبي ، **الأمي** ، الذي يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه ، لعلكم تهتدون)) .

بداية أشير إلى أن الكلمة (الأمي) لم ترد بفاصلة مستقلة حتى تعد آية منفردة ويتم تأويلها برمتها وحدها كونها آية ، وإنما وردت الكلمة ضمن مجموعات من الجمل التي كونت مقطعا مميزا داخل قصص كثير ضمن وحدة كاملة ، تسمى سورة الأعراف .

إذا لا بد من مراعاة هذه الأمور حين قراءة الكلمة (تفسيرها) واستجلاء معناها المراد ، بحسب رؤية معينة لا تحكر فهم المعنى عليها.

تبدأ السورة بحديث مجمل عن قضيتين رئيسيتين أولاهما : تتحدث عن القرآن ، والثانية : المنكرين له والمكذبين جملة الوحي الإلهي .

تتحدث السورة في بدايتها عن القرآن : " كتاب أنزل إليك " " لتنذر به وذكرى للمؤمنين " .

اللهُ يخاطب مصطفاه بقرآنه وعن قرآنه الذي أنزله هو وحده عليه لينذر ويذكر به الناس ، وهنا لادخل للنبي في صياغة هذا الكتاب ، لأنه منزل ، والنبي مذكر ومنذر

فحسب ، فقضية إتيانه بشيء منه تتلاشى نهائيا بكلمة (أنزل) .

فمنذ البداية لا يضاف الكتاب إلا إلى الله وعلى مدار السورة بأكملها:

(كتاب أنزل إليك ـ أنزل إليكم من ربكم ـ يقصون عليكم آياتي ـ كذبوا بآياتنا ـ كذب بآياته ـ جئناهم بكتاب ـ ذكر من ربكم ـ رسالات ربي ـ آلاء الله ـ رسالة ربي ـ بينة ربي) .

فالكتاب ، والآية ، والرسالة ، والآلاء ، والبينة من عند الله ، وما البشر المصطفون إلا مبلغين ومذكرين ، غاية الأمر أنهم يختارون من قبل حكيم ، يعدهم إعدادا سليما ، ويصنعهم على عينه .

ثم يأتي الحديث عن منكري الوحي ومكذبيه في أغلب الرسالات ، إلى أن يصل الحديث عن قوم موسى ، فيقص حديثهم باستفاضة ، ويروي خبر القوم الذين اختيروا من قبل موسى ، وربما هم المعنيون بالإشارة في الآية ١٥٩.

وفي حديث القرآن بعد دعاء قوم موسى يقول الله إن رحمته ستكتب لمن توافرت فيه هذه الشروط :

(التقوى ، إيتاء الزكاة ، الإيمان بالآيات) سواء كان من قوم موسى أو من غيرهم " ورحمتي وسعت كل شيء " .

لكن الله تعالى قيد شرطا خاصا جعله في مقابل هذه الصفات المطلوب توافرها لمن أراد رحمته وهو : اتباع (الرسول ـ النبي ـ الأمي) .

وإذا كانت الرحمة تساوي النجاة من العذاب ، والحسنات في الدنيا والآخرة ـ حسب الآية ١٥٦ ـ فلا بد إذن من الانتباه إلى الشروط أو الصفات المطلوب استحقاق الرحمة بها ، لأن تغييرا كبيرا سيحدث ، فالمسألة ليست تضرعا فحسب " واكتب لنا .... إنا هدنا إليك " المطلوب أكبر من هذا إنها قضية تلاشي الذات الأنانية في دعوة ، دائمة مستمرة ؛ حتى يتحقق المطلوب والتوقف عن الاتباع والسير خلف

القائد والداعي ، يجعل المراد غير متحصل .

ما صفات هذا الداعية المراد اتباعه ؟!

الرسول ـ النبي ـ الأمي .

أهذه صفات موقوتة بأجل معين ؟ هل يمكن تغييرها ؟ هل يصح أن يتصف الداعية الآتي بغيرها ؟!

يؤكد المسار التراتبي للأفكار السابقة ، والآيات الواردة ، والتناسب بينها على أن هذه الأشياء ثابتة لا تتغير :

رسول من عند الله : فلا يمكن أن يتحول فيما بعد دعيا (مدعيا) .

نبـــــي : مخبر ومبلغ ، لا يصح كتمانا ، ولا يستطيع هو نفسه ذلك إذ من تكفل برعايته وأرسله هو الله .

أمـــي : دائما ـ مستمرا ـ عاليا ـ غير سابقيه ـ تتحول مسارات المتبعين إليه ـ يقصده طالبوا النجاة والرحمة ـ بدونه لن ينال المراد ويظل الابتهال والتضرع هباء .

لابد إذن أن تكون هذه الكلمات (الرسول ـ النبي ـ الأمي) بمثابة أعلام مضيئة لطالبي النجاة ؛ لكن كلمة (رسول) هي صفة يشترك فيها كثيرين (رسلا) ونبي (أنبياء) ، إذن فما هناك من خصوصية للداعي الجديد يتفرد بها سوى (الأمي)!!

هل يتفرد الداعي الجديد ـ المحول لمسار الدعوة ، والذي قصر الله النجاة على اتباع منهجه وحده ـ بالجهل بالقراءة والكتابة ؟!

هل هناك من فكرة ضمن مجموعة الآيات الواردة في السورة من أولها إلى آخرها تشير إلى ذلك ؟!

هل ورد طعن في القرآن وأراد الله أن يدافع عن كتابه ويبين حال نبيه ، فجرده من علمه بالقراءة والكتابة حتى ينزه القرآن ؟!



الحقيقة أن شيئا من ذلك لم يرد له ذكر في هذه السورة التي ذكر فيها (الأمي) مرتين .

فالله ـ تبارك وتعالى ـ أورد اللفظة مرتين في معرض البشارة والهداية ، والتبشير بالشيء الجديد ، يقتضي من الصفات ما هو في معرض المدح والفخار ، والمتناسب مع ذلك والفخر كل الفخربه ، أن يراد بكلمة (الأمي) العالمي الخاتم ، لا الجاهل بالقراءة والكتابة ، ولعل ثائرة اليهود لم تشتعل إلا لأنهم فهموا ذلك ، أي فهموا أن الآتي سيكون عالمي الدعوة ، لا يختص بفئة دون فئة ، ولا بقوم دون قوم ، بل يدعو الخطاة والأبرار جميعهم إلى دينه سواء منهم من كان على دين أو على هباء وفراغ .

واليهود المخاطبون ـ مبدئيا ـ من الله هم فئة من أعلى الناس تمسكا بالماديات ، حتى أنهم جسدوا إلههم ، فأول ما يصف الله لهم النبي الآتي يصفه لهم بجهل القراءة والكتابة ، لعل في ذلك ما يدعوهم للحجاج والنفرة من الأوامر الإلهية كعادتهم .

لا بد إذن أن تشتمل البشارة على مشهيات للعقول والأفئدة ، إذ أنها تخاطب كل الخلق فيما بعد ، وتظل البشارة قائمة للموجودين والآتيين ، وهو ما روعي في الخطاب حيث وصف الله الآتي بـ :

(يأمر بالمعروف ـ ينهى عن المنكر ـ يحل الطيبات ـ يحرم الخبائث ـ يضع الإصر والأغلال ـ رسول من الله إلى الجميع ـ يؤمن بالله كلماته ـ متبعوه يهتدون ـ)

صفات كلها مادحة في الشخص ، تؤدي إلى غرض الدعوة ، لا يعترض عليها إلا من مختل البنيان عديم الحكمة .

أما مسألة القراءة والكتابة ، فلا تشغل بل جميع طبقات الناس ، إنما يعنى بها نفر معين ، وفئة معينة ، ويستنبطها هؤلاء ، أما غيرهم فلا يستطيعون معرفة القارئ والكاتب من غيره ، وهم في جميع الشعوب يمثلون نسبة ليست بالقليلة ، والله يخاطب الناس على إطلاقهم لا فئة معينة .

والصفات الثمانية السابقة يستوي في إدراكها الناس جميعهم ، بقي العلم الذاتي الذي خصه الله بالنبي الآتي ، وهو: **الأمي** ، لعل المشاكلة تقتضي أن يكون ذائعا شائعا بمثابة الإعلام ، ولا أرى ذلك متناسبا إلا مع عالمية هذا الآتي وتخليصه لجميع الشعوب ودعوتهم جميعا ، خاصة وأن الله قد بدأ الآية التالية لذكر الأمي بقوله له ،بل بأمره إياه :

(قل : يا أيها الناس إني رسول الله إليكم ـ جميعا)

ثم ما لبث أن ذكرت اللفظة (الأمي) مرة ثانية وقرنت بالنبوة ، ثم بأمر الاتباع لأنه سيؤدي إلى الهداية.

فالأمر لهذا النبي يدل على أنه (مبلغ ـ داعية ـ نبي ـ يخاطب ـ ب(قل))

لكن ما هو الأمر المطلوب تبليغه ؟ المطلوب هو تبليغه لجميع الناس أنه الرسول الذي بدون الإيمان به لن ينل شخص رحمات الله وجناته ، حتى لو اتقى وآتى الزكاة وأقر بالتوحيد ، ولم يعط للآتي حقه فلا قيمة لما فعل من صالح .

وبالنظر إلى المفردات الواردة في الأمر الإلهي : (الناس ـ إني ـ (م) ميم الجمع ـ جميعا) تجدها مخاطبة العموم لا الخصوص ، العالم لا شطره أو جزء منه ، ألا يشير ذلك إلى شيء ؟!

اسمية الجملة ، وتأكيدها بـ : (إن) مضافة إلى ياء المتكلم (الرسول الأمي) ، وتأكيد (العالم ـ الناس) بـ (جميعا) ألا يشير إلى شيء أيضا ؟!

بلى ، ذلك إشارة جاءت بمثابة الواصلة [٥٠] بين (طلب الرحمة والنجاة ـ الإيمان ـ الأمي النير ـ الأمي المؤمن الهادي).

فتكرار لفظة الأمي مرتين ، وورود الأمر الإلهي السابق بكل هذه الصيغ التأكيدية

---

[٥٠] ارجو من القارئ الكريم أن يكون بين يديه وقت لقراءة هذا البحث سورة الأعراف (١٥٦، ١٥٧، ١٥٨)

يذهب بنا إلى أن الأمية هنا = العالمية ، والأمي هو العالمي.

هذا برأيي ما يؤدي إليه التفسير القرآني للكلمة بعيدا عن الدخول في تأويلات معتمدة على نصوص التوراة والإنجيل .

تفسير العلماء لكلمة (الأمي) الواردة في سورة الأعراف :

اختلف[51] العلماء بشأن معنى (الأمي) و وردت أقوال كثيرة في ذلك منها :

- هو من لا يقربكتاب ولا برسول [52].
- من لا يحسن القراءة والكتابة [53].
- المنسوب إلى أمة العرب لأنهم كانوا لا يكتبون ولا يقرأون من بين الأمم [54].
- المنسوب إلى أم القرى وهي مكة [55].
- المنسوب إلى الأم وهو القصد ، وتقرأ (الأمي) آنئذ بالفتح ؛ لأن هذا النبي الأمي مقصد للناس وموضع أم يؤمونه بأفعالهم وتشرعهم ، وعنها ، قل ابن جني : وتحتمل هذه القراءة أن يريد الأمي فغير تغيير النسب [56].
- الأمي : نسب إلى الأمة ، وهي القامة والخلقة ، كأنه ليس له من الآدميين إلا

---

[51] نص على الاختلاف فخر الدين الرازي في التفسير الكبير ٢/١٩٧ ط : دار الغد العربي القاهرة .

[52] الرازي : ٢/١٩٧

[53] أغلب المفسرين إن لم يكن كلهم أورد هذا القول .

[54] وارد عند الكثيرين راجع مثلا : الزمخشري ، السيوطي .

[55] راجع تفسير ابن عطية ، والقرطبي ، والسمعاني ، والسمرقندي ، والنحاس في معاني القرآن ونسبه ابن الجوزي في زاد المسير إلى السدي وقتادة .

[56] انظر ابن عطية " المحرر الوجيز " ٢/٤٦٢ ط : دار الكتب العلمية ، بيروت .

ذلك .[57]

- الأمي : الأعجمي .

- الأمي : الذي لا يدنس شيء من الكون .

- الأمي : من لا يعلم من الدنيا شيئا ولا في الآخرة إلا ما علمه ربه ، حالته مع الله حالة واحدة ، وهي الطهارة بالافتقار إليه والاستغناء عما سواه .[58]

- الذي لا يقرأ الكتب ولا يخطها بيمينه .

- وعلى الرغم من هذا الاختلاف في تحديد معنى دقيق للكلمة ، جرى شبه إجماع على تأويلها في هذا الموضع (سورة الأعراف) بأنها لاتشير إلا إلى من لا يعرف القراءة والكتابة ، واعتبروها صفة إعجاز في حق النبي محمدﷺ.

وقد تم الربط بين هذا المعنى ، وكلمة الأمي باعتبار أنها صفة النبي في التوراة والإنجيل [59]حيث ورد عند أشعياء نبوءة تقول : إني أبعث أعمى في عميان وأميا في أميين [60].

وعن عطاء بن يسار :لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص [61]، قلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة ، فقال : أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته

---

[57] السابق نفسه ١ /١٦٩

[58] راجع تفسير السلمي ص ٢٤٥ ، ٢٤٦

[59] ينسب إلى ابن عباس نقلا من التوراة : " إن الله عهد إلى بني إسرائيل في التوراة أني باعث من بني إسماعيل نبيا أميا ، وقد اعتمده الرازي في التأكيد على أمية النبي محمد ﷺ انظر تفسيره ٢ /١٩١

[60] انظر الكشاف للزمخشري ٤ /٥٣٠ حيث أورد النبوءة في تفسير سورة الجمعة ، جدير بالذكر أن مجموعة الرواة التي داولت هذا الأثر في كتب دلا ئل النبوة مجموعة ضعيفة وبعضها متروك ، انظر دلائل النبوة للأصبهاني حديث ٣٢ والتعليقة عليه ص ٧٢ ، ط : دار النقاش بيروت .

[61] كلاهما اشتهر بالنقل عن الكتب القديمة ، والأول كان تلميذا لكعب الأحبار ، معتمدا في نقله عليه .

في القرآن : ياأيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ و لا غليظ ولا صخاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله ......

قال عطاء : ثم لقيت كعبا ، فسألته عن ذلك ، فما اختلفا حرفا إلا أن كعبا قال : بلغته : قلوبا غلوفيا ، وآذانا صموميا ، وأعينا عموميا .

قال ابن عطية : وأظن هذا وهما أو عجمة .

قال الطبري : هي لغة حميرية . ، نقل هذا الأثر القرطبي معتمدا إياه في تفسير آية الأعراف ، لكن ابن كثير أورد أثرين غيره عبارة عن نقول من التوراة أيضا ،

لعل الأثر الذي أورده الزمخشري هو ما يتناسب مع الآية المراد تفسيرها ، أما بقية الآثار التي أوردها علماؤنا ، فأرى أنها مقحمة على السياق ، إذ ما هي إلا مجموعة أقوال نسبت إلى التوراة ، تخص مسألة البشارة بالنبي محمد ﷺ في الكتب القديمة (التوراة خاصة) وهي في أغلبها آثار واهية السند والمتن ، ربما يمكن قبولها على سبيل الحكاية ، لا على سبيل التأصيل .

غاية الأمر أنك لو راجعت التفاسير القديمة للآية (ولكلمة الأمي خاصة) تستطيع أن تلمح بعض الظواهر نوردها لك فيما يلي :

ملاحظ على تفاسير لفظة أمي :

١- هناك تردد واضطراب لدى العلماء في تفسير اللفظة من حيث معناها المعجمي ، ومعناها الخاص بالنبي محمد ﷺ ، وهناك تأويلات شتى للكلمة ، كل ينزع في تأويله إلى منحى واحد وهو : التجهيل ، ويعتبرونه صفة ذم في جميع الأشخاص عدا النبي محمدﷺ ، فهي صفة مدح ، بل صفة إعجازية تعطيه تفردا

على مدى التاريخ البشرى العام ، فالجاهل بالقراءة والكتابة ناقص (من الناحية المادية) لصفة هامة من صفات العلم ، أما بالنسبة لمحمد ﷺ يتحول هذا النقص المادي إلى ثراء معنوي !!

٢- لم ترتكز التفاسير التي تعرضت لتأويل لفظة (أ م م - أ م م ي ي) على الإطار القرآني وأخفقت أن تحقق نسيجا كاملا نستطيع من خلاله أن نقف على معنى جامع مانع ، أو قاطع نخرج به من خلاله ، إلى توضيح هذه الصفة التي وصف بها النبي محمدﷺ (أمي) خاصة وأنها أضحت عقيدة ،يستحق منكرها التكفير [٦٢]

فإذا كانت اللفظة غير مقطوع بدلالتها حتى الآن ، فكيف يمسي منكر تأويل أحد معانيها كافرا ، لعل ذلك ما تنبه إليه المفسر القرطبي!!

٣- من ناحية اللفظة (أ م م ي) كمصطلح أو كلمة قرآنية (أمي) افتقد في تفسيرها الاعتماد على النص القرآني وتعابيره المختلفة بشأن الكلمة ، ككثيرات مثلها [٦٣]، وجرى تأويل استخداماتها المختلفة [٦٤]بحسب النصوص الكتابية (توراة وإنجيل) دون وعي تام بالنصوص ، بل بنظرة تمجيدية عاطفية ، نبعت من حب المؤمنين للنبي محمد ﷺ والتمسك بظاهر النصوص القرآنية ، خاصة إذا ضموا الآيات القرآنية جنبا إلى جنب ، بل الجمل بعضها إلى بعض ، فعلى سبيل المثال بخصوص تأويل قوله تعالى : (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي - الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل - يأمرهم بالمعروف - وينهاهم عن المنكر - ويحل لهم الطيبات - ويحرم عليهم الخبائث - ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت

---

[٦٢] راجع ما حدث بشأن الإمام الباجي في تاريخ قضاة الأندلس ص ٢٠٢ دار الآفاق بيروت ، وهو لم يخرج عن التقليد العام .

[٦٣] على سبيل المثال : كـ جملة (اسمه أحمد) الواردة في الآية في سورة الصف ٦

[٦٤] سورة البقرة ٧٨ ، آل عمران ٧٥ ، الأعراف ١٥٧، ١٥٨ ، الجمعة ٢

عليهم) [65].

تم التفسير باعتبار أن المعنى المراد هو : ـ (.... الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل)

وتم استبعاد لفظتين من الآية الكريمة ، وتمسكوا باللفظة الثالثة (أمي) ، وألصقت اللفظة بجانب الجملة الثانية ، باعتبار أن المراد هو أنكم ستجدون ذكر محمد في التوراة والإنجيل : (الأمي) .

١- لماذا استبعدت اللفظتان من حيث الذكر في الكتب السابقة ؟!

٢- لماذا استبعد الإنجيل ، كذاكر للفظة (أمي) وتم التمسك بالتوراة وحدها كذاكرة للكلمة ضمن بشائرها بالنبي الآتي ؟!

ليست هناك أية إجابة على هذين السؤالين .

إذا صح التأويل على هذه الصورة ، فبتمام الجملة (الذي يجدونه مكتوباعندهم في التوراة والإنجيل) يتم المراد ، فهل توقف الأمر على هذا الحد ؟

الحقيقة أنه لم يتوقف بل ذهب الكثير من علماء المسلمين القدامى وبعض المحدثين على اعتبار أن المذكور في التوراة والإنجيل ليست لفظة (الأمي) وحدها بل الجمل الخمس المذكورة بعدها .

لكن علام كان الاعتماد في هذه التفاسير؟ هل جرى تعسفا وحبا أم كان له مستند؟

الحقيقة أن الأعلام الكبار ما كانوا بهذه الصورة التعسفية أو العاطفية ، فهم أعلى مكانة من هذا ، خاصة المتألهين منهم الذين نصبوا أنفسهم لتأويل القرآن الكريم ، وبيت القصيد أنهم اعتمدوا في التأويل على آثار السابقين ، التي أضحى

---

[65] الأعراف : ١٥٧ .

الإيمان بها من صحيح المعتقد ، ولا يصح الخروج عنها ، فالذي حدث أن مسلمة أهل الكتاب حدثوا بآثار من أمثال:

" أوحى الله تعالى إلى أشعياء .... فإني مبتعث لذلك نبيا أميا ، أعمى من عميان " .

" إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين " .

" فوجدت فيها نعت محمد ﷺ أنه لا قصير ولا طويل ، أبيض ، ذو ضفيرتين بين كتفيه خاتم يكثر الاحتباء .... ويحتلب الشاة ويلبس قميصا مرقوعا " .

حدث أن تناثرت هذه الآثار ضمن المدونات التراثية ، وتناقلتها الألسنة عبر الأحاديث الشفاهية والحكايات والقصص ، حتى أمسى الإيمان بها مرتكزا عقديا يمثل إيمان الجماعة وعاطفتها تجاه النبي ﷺ ، وهنا تم الربط بينها والتفسير القرآني ، خاصة ما عني منه بالمأثور [٦٦].

٤- تم التركيز بصفة خاصة حين التأويل لكلمة (الأمي) على بشارات التوراة ، وخفتت النقول الإنجيلية ، وأخذت النقول التوراتية مكانا محاذيا للقرآن أو أكبر ، ولا مبرر لذلك ، إضافة إلى أن العلماء المسلمين يعتبرون (الكتاب المقدس) محرفا [٦٧]، وسواء أصاب التحريف أغلبه أوكله ـ كما يقال ـ فإن دلالة ما فيه تصبح ظنية ، والقرآن قطعي ، في ثبوته إلى المولى ـ سبحانه وتعالى ـ وتفسير القطعي بالظني لا يؤدي النتيجة المرجوة ، ولا يبنى عليه معتقد صارم بهذه الصور الآنية .

---

[٦٦] راجع بشأن آثار مسلمي أهل الكتاب ، واعتماد المفسرين عليها ، تحليل ابن تيمية للمسألة ، ومحمد عبده في " تفسير المنار" ١/٨ ، ٩، ١٠ ، ط : ١٩٧٢ الهيئة المصرية للكتاب .

[٦٧] بشأن عدم التحريف اللفظي للتوراة والإنجيل ، وعدم إدخال شيء فيه غير كلمة الله ، راجع نصا هاما واردا في " رسالة محمد بن الليث إلى قسطنطين ملك الروم " ص ٧٥ ،٧٧ ط: ١٩٣٦ مصطفى الحلبي .

٥- إضراب عدد من المفسرين عن تفسير الكلمة في الموضوع الذي وردت فيه بصيغة المفرد رغم موافقتهم لغيرهم في دلالتها (أي على عدم معرفة القراءة والكتابة) كما يشهد لذلك تفسيرهم لصيغ الجمع في المواضع التي وردت فيها في القرآن ، إضافة إلى ما أوردوه عند تفسيرهم لآيتي الأعراف نفسها ، ومن هؤلاء العلماء : ابن كثير : (النبي الأمي : أي الذي وعدتم به وبشرتم به في الكتب المتقدمة ، فإنه منعوت بذلك في كتبهم) وهو الموقف نفسه الذي نراه عند الطبري والنسفي مثلا ، وهوموقف سيد قطب (من المحدثين) حيث اكتفى بترديد الصيغة القرآنية (النبي الأمي) مرات متعددة في الفقرة التي كتبها لتفسير الآيتين الطويلتين اللتين وردت فيهما[٦٨].

---

[٦٨] انظر بشأن هذه الملحوظة :د /لخضر شايب ، " هل كان محمد أميا " ص ٦٥ ، ط: ٢٠٠٣ دار قتيبة .

ثانيا: لم يمت محمد حتى قرأ وكتب

يقول الذهبي : [٦٩]

قرأت على إسحاق بن طارق الأسدي : أخبركم ابن خليل ، أنا أبوالمكارم التيمي ، أنا أبوعلي الحداد ، أنا أبونعيم ، نا سليمان بن أحمد ، نا محمد بن يحيى بن منده ، أنا أبوبكر بن أبي النضر ، نا أبوعقيل الثقفي ، نا مجالد ، أنا عون بن عبدالله بن عتيب عن أبيه ، قال:

(ما مات النبي ﷺ حتى قرأ وكتب) .

وعلق الذهبي على الرواية قائلا :

وما المانع من جواز تعلم النبي ﷺ يسير الكتابة ، بعد أن كان أميا لا يدري ما الكتابة ، فلعله لكثرة ما أملي على كتاب الوحي وكتاب السنن والكتب إلى الملوك ، عرف من الخط وفهمه ، وكتب الكلمة والكلمتين ، كما كتب اسمه الشريف يوم الحديبية (محمد بن عبدالله) وليست كتابته بهذا القدر اليسير مما يخرجه عن كونه أميا ككثير من الملوك أميين ويكتبون العلامة .

وذكر الباجي [٧٠]:

---

[٦٩] في تذكرة الحفاظ ٢/٧٤٢ ط : دار إحياء التراث بيروت

للأثر السابق رواية من طريق آخر فيها :

(ما مات رسول الله حتى كتب وقرأ)

ويعقب الرواية تصديق الشعبي عليها ، وقوله : قد سمعت أصحابنا يذكرون ذلك.

وعلق الباجي عليها بقوله :

وهذا الإسناد[71] رواته كلهم مشاهير ، ومحال أن يرووا ما لايستحلون النطق به ، فلو لم يذكروا هذا إلا من رواه في هذا الإسناد لكان أمرا فاشيا ظاهرا . فمن خفيت عليه الأمور الفاشية الظاهرة فلا يلم إلا نفسه ولايوبخ إلا قلة علمه .

ثم ذكر الباجي رواية النقاشي في كتابه شفاء الصدور ـ تفسير للقرآن ـ أنه : ما مات رسول الله حتى كتب .

---

[٧٠] في رسالته عن كتابة النبي ١٩٩-٢٠١ ط : عالم الكتب الرياض

[٧١] الرواة هم : عباس بن محمد الدوري ، حدثنا أبوالنصر هاشم بن القاسم ،حدثنا أبوعقيل ، حدثنا مجالد بن سعيد ، حدثنا عون بن عبدالله عن أبيه.

ثالثا : كتابة محمد المباشرة بيده في أيام بعثته

يمثل هذا الاتجاه :

الشعبي ، وابن أبي شيبة ، أبوذر الهروي ، الباجي ، النيسابوري ، الألوسي المفسر ـ ابن منية .

ولم يؤثر عن جميعهم تفصيلا في القضية ، عدا أبوالوليد الباجي ، فقد صنف كتابا في المسألة ، حقق فيها مذهبه ، من أن الرسول كتب يوم صلح الحديبية على سبيل الإعجاز[٧٢]. إلا أنه في بداية الأمر ، وإطلاقه القول في المسألة ، وجد اجتهاده معارضة شديدة ، فكان أن كفره أبوبكر بن الصائغ المعاصر له ، بإجازته الكتابة على النبي ﷺ وأن هذا تكذيب للقرآن .

وتوالت المعارضات ، حتى كتب الأمير في المسألة إلى علماء أفريقية وصقلية ، برغبة الباجي في ذلك ، فجاءت الأجوبة من هناك بتصديقه وتصويب مقالته ، وسلم بقوله كثير من معاصريه .

ـ فقال أحمد بن محمد اللخمي بتصويب الباجي ، وقال في حقه : ولا يجوز أن يؤذى إمام من أئمة المسلمين معروف خيره وعلمه وصحة مذهبه وعلمه بالفقه والكلام ولا أن يطلق عليه بالتضليل .

---

[٧٢] راجع : ترتيب المدارك للقاضي عياض ٤/ ٨٠٥، ٨٠٦ نشرة مكتبة الحياة بيروت .

ـ وقال جعفر بن عبدالجبار منتصرا له : وما يستبعد ذلك من مثله لما وهبه الله من الفهم .

ـ وقال الحسن بن علي التميمي المصري :

وقفت على ما كتب به الفقيه القاضي الأجل شيخنا وكبيرنا وإمامنا ...... فكل ماجاوب به مما يتعلق بالكلام في المعجزات صحيح ظاهر لمن أنصف نفسه وراجع بصيرته فهوالحق الذي لايرد والجلي الذي لا عنه يصد .

ـ وقال محمد بن إبراهيم بن محمد الكناني :

قد تأملت ...... ما أورده الشيخ الفقيه أبوالوليد سليمان بن خلف الباجي .... ورأيت ما أتى به مقنعا ... وأما ما أورده ...... فلقد أجاد فيما أبدى وأعاد ، وما ذلك من مثله مستغرب .

ـ وقال أبوالفضل جعفر بن نصر البغدادي :

ما ذكره القاضي أبوالوليد سليمان بن خلف الباجي عن رسول الله ﷺ أنه قرأ وكتب بيده قبل أن يموت قول معروف صحيح عند علمائنا الذين بهم نقتدي .

وقد بنى الباجي مذهبه على قصة صلح الحديبية ، واستشهد بالرواية القائلة :

ـ فأخذ رسول الله الكتاب ، فكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبدالله .

ـ فأخذ رسول الله الكتاب ، وليس يحسن يكتب ، فكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبدالله .

وجعل ذلك خرقا للعادة (معجزا) ولا يتعارض مع النص القرآني :

(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) .

إذ ظاهر فيه التخصيص بالقبلية ؛ لإقامة الحجة على المخالف ، وختم الباجي

رسالته بما يستحق التسجيل لأهميته [73]:

" غير أنه من قال : إن النبي ﷺ قد كتب قبل النبوة فقد كفر ، لأنه كذب نص القرآن في قوله تعالى :

(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك)

وخالف إجماع المسلمين .

وأما من قال : إنه لم يكتب قبل النبوة وكتب بعدها على ما نقلناه من أقوال الناس في ذلك ، فليس في قوله ما يقتضي الكفر لأنه لم يخالف نص القرآن ؛ لأن القرآن إنما تضمن نفي الكتابة عنه قبل النبوة ، ولا خالف إجماع المسلمين (ولكنه مخطئ في قوله ذلك لما بينته في هذا الكتاب)

ولعل الجملة الأخيرة زيدت من الناسخ ، أو من محقق الكتاب ، لأنه لا يعقل أن يخطأ الباجي نفسه بعد كل هذا الجهد في الاستدلال على صحة ما ذهب إليه ، وهي ما تتناقض مع سابق قوله : أن ذلك غير مخالف للقرآن ، وغير مخالف للسنة ، وغير مخالف للإجماع ، فأين الخطأ إذن .

ولا يعقل أن يرجع عن مذهبه في نفس الكتاب الذي يحقق فيه المذهب .

تعليق على الآراء السابقة

١- مسألة أمية محمد ﷺ (= جهله بالقراءة والكتابة) ليست قطعية الثبوت ، حتى تكون مدعاة لتكفير الآخرين ، حسب التصور العام في الإسلام ، خاصة وأن آية سورة العنكبوت (٤٨) هي الوحيدة في القرآن التي تتعلق بهذه

---

[73] سنوضح فيما بعد . عند تعليقنا على هذه الاتجاهات . أهمية كلامه.

القضية ، والتحليل الدلالي للفعل المنفي [٧٤] (ماتتلو) يثبت أنه ينفي عن النبي قراءة الكتب المقدسة ، ويتأكد هذاالرأي إذا قرأنا الفعل بجوار الآيات التي تتحدث عن (الأمي) ،

(الأميين) ، فإنها تنصرف تلقائيا إلى صفة الجهل بالكتب المقدسة السابقة على رسالة محمد .

٢- تمسك الجمهور الإسلامي بفرضية : جهل محمد بالقراءة والكتابة ، اعتمادا على معنى لغوي واحد للفظة (أمي) وفي هذا إغفال للمعاني الأخرى ، التي يخبرنا القرآن بقصديته لها حين استعماله للكلمة ، وقد ترى العالم يذكر تفسيرا للفظ يتوافق مع الاتجاه العام الرامي إلى تجهيل محمدﷺ المعرفي بالقراءة والكتابة ، ثم يذكر تفسيرا آخر لكنه لا يلقي له بالا، لذلك فإننا نرفض التفسير العام للفظة (أمي) ونركن إلى أن الأمية تعني الجهل بالكتب السماوية السابقة ، ونعضد نظرتنا بالأقوال التالية التي تؤكد على أن الأمية انعدام المعرفة بالوحي الإلهي السابق :

* قل ابن عباس : الأميون : العرب كلهم من كتب منهم ومن لم يكتب لأنهم لم يكونوا أهل كتاب .

* قل ابن تيمية : الأميون : يتناول العرب قاطبة دون أهل الكتاب

* وقل في موضع آخر : وقد كان في العرب كثير ممن يكتب ويقرأ[٧٥] .

* وقل أبوحيان في تفسيره : الأميون هم مشركوالعرب ودخل في ذلك من لا كتاب له .

* وربط إسماعيل حقي في تفسيره للفظة (أمي) بين العربية والعبرية فقل : (

---

[٧٤] سنوضح ذلك عند تفصيل رأينا في أمية محمد في المبحث التالي .

[٧٥] : راجع تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية ، ط دار الريان للتراث .

والأميون هم العرب ، وسموا أميين ؛ لأنه لم يكن لهم كتاب سماوي ، وكان اليهود يطلقون على جميع الأمم لفظ الأمية بالإضافة إليهم هم يريدون بهذا أن يمتازوا عن الناس بأنهم هم الذين خاطبتهم السماء وبعثت فيهم الرسل وأنزلت عليهم الكتب ، والأمية التي وصف بها العرب هي أمية من نوع خاص ، وهي أمية من لا كتاب لهم من عندالله) .

ويقول محمد رشيد رضا ـ في تفسيره ـ :

وربما سموا كذلك ـ أميون ـ كما كان اليهود يقولون عن غيرهم من الأمم إنهم (جوييم) ـ باللغة العبرية ـ أي : أميون ، نسبة إلى الأمم ، بوصفهم شعب الله المختار، وغيرهم من الأمم ، والنسبة في العربية إلى أمية وأميين ، وربما كان هذا أقرب بالنسبة إلى موضوع السورة .

على أنه قد وردت معاني أخرى للفظة (أمي) لا ينبغي إغفالها حين التصور العام للقضية ، وإن كانت تعتمد على الإشارة والعاطفة المعظمة لـ محمد ﷺ .

ـ الأمي هو : المقصود ، وتشكل الألف بالفتحة ، بمعنى (قصد) ، منسوب إلى الأمم مصدر(أم) ، ودليل هذا الرأي : قراءة يعقوب الأمي ـ بفتح الهمزة . [٧٦]

ـ يقول الألوسي :

الأمي : هو رسول الله ، سمي بذلك ؛ لأنه أم الموجودات ـ وأصل المكونات .

٣- كون النبي أميا لمجرد الأمية لا تعلق له بالإعجاز ، لأن الأميين في زمنه ، وفي كل زمن عدد لا يحصى[٧٧]. وقد علمنا من طريق الضرورة أنه في

---

[٧٦] راجع : روح المعاني ٧٠/٩ ، وتفسير صديق خان ٤٢/٣ ، وتفسير أبو السعود ٢٠٧/٢ ، والبحر المحيط ٤٠٣/٤ ، عن رسالة الباجي في أمية النبي محمد ﷺ ص ٣٠.

[٧٧] راجع : رسالة الباجي ص ١٨٧ ، رسالة عبدالله الحسين البصري. ملحقة بها. ص ٣٥٢، ٣٥٤.

أمته عليه السلام ممن وقعت عليه هذه التسمية من يكتب ويقرأ ، فلا معنى للاحتجاج بموجبها على التفصيل ، إذ ليست أميته معجزة له ، وإنما المعجز ما أتى به من القرآن الذي فارق نظمه سائر نظم كلام . ولو تحدى الله العرب بأمية محمد ﷺ لقابله عشرة آلاف أو يزيدون ، وقالوا له كل واحد منا أمي وهو نبي ، وأميته ليست بالمعجزة ، إنما المعجز هو ماخرق العادة ، ولايطلق ذلك إلا على القرآن . وعلى هذا : فإن القول بكتابة النبي ﷺ وقراءته ، لا يضر نبوته في شيء ، ولايقلل من إلهية القرآن ، خاصة وأن محمدا ﷺ لا دخل له في صياغة النص القرآني ، على أن هذا القول ليس حديث العهد، أو راجع إلى الكتابات الاستشراقية من ناحية تأصيلية ، فقد ذكر محمد بن إبراهيم الكتاني[٧٨] مانصه :

" وقد رأيت في بعض التواليف في فضل الكتابة والتنبيه على علو رتبتها أن بعض المتكلمين زعم أن النبي ﷺ كان يقرأ ويكتب ويقول الشعر ، واحتج بما وقع له من الكلام الموزون ، ورأى أن الكتابة وقول الشعر فضيلة لا يصح عند ه أن يكون الرسول عاطلا منها ، وأن النافي عنه ذلك مقصر به عن رتبته ، وقائل فيه مالايسوغ له القول به .

٤- استدل القائلون بأمية محمد ﷺ على مذهبهم من خلال تأويل الآيات القرآنية ، وتمسكوا ببعض الآثار والأحاديث الواردة بشأن الأمية ، لكنهم أغفلوا ما يناهضها ويعارضها من أقوال وآثار وأحاديث .

وقد وردت أقوال لعلماء بارزين ، تؤكد على امتلاك محمد صلى الله عليه وسلم لأدوات القراءة والكتابة ، لكنه لم يستعملها ، يؤكد على ذلك كثير من المتكلمين ، وعلى رأسهم الجاحظ ، وروى الأشخر اليمني (في شرح بهجة المحافل

---

[٧٨] من أهل صقلية وكان معاصرا لأبي الوليد الباجي .

٣٠٧/١) عن ابن الجوزي أنه قال : كان رسول الله لا يكتب ولو أراد لقدر .

وقال البغوي في التهذيب :

قيل : كان يحسن الخط ولايكتب ، ويحسن الشعر ولايقوله .

وتمثل هذه الأقوال النظرة العقلية إلى طبيعة الجزيرة العربية ، فقد كان التفوق الأدبي سمة بارزة في هذا المجتمع ، وقد ذكرنا سابقا معرفتهم بالآداب العالمية

(فارسية ـ هندية) ، فكيف تصغر قامة محمد ﷺ عن هؤلاء ، على الأقل يدري بهذه الأمور ثم يتركها لما هو أهم ، فلا قيمة لزهد أو ترك إلا عن قوة .

– وعن الآيات القرآنية الواردة بشأن تثبيت دلائل الجهل المعرفي لـ محمد ﷺ (النبي الأمي) ، (بعث في الأميين) ، (وماكنت تتلو من قبله من كتاب) يقول الباجي عن الآية الأولى :

لا يريد القرآن نفي الكتابة عنه بهذه الآية ، إنما يريد نسبته إلى الأمة الأمية ، وقد قال تعالى : (وهو الذي بعث في الأميين رسولا منهم) ، ولا نشك أن أبابكر وعثمان وعمر من جملتهم ، وإن كانوا قد كتبوا وقرئوا ؛ لكنه أراد بذلك نسبتهم إلى الأمة الأمية ، لا نفي الكتابة والقراءة عنهم .

ووصفت الأمة بأنها أمية (في) أعظم أحوالها ، فلا يثبت حينئذ على هذا النبي نفي الكتابة والقراءة عنه بقوله (النبي الأمي) [٧٩].

– وذكر الطبرسي في (تفسيره ٢٨٧/٨) عند تأويل قوله تعالى : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون) ظاهر الآية يقتضي أن النفي قد تعلق بما قبل النبوة ؛ لأن المبطلين إنما يرتابون في نبوته لوكان يحسن الكتابة قبل النبوة ، فأما بعد النبوة فلا تعلق له بالريبة والتهمة ، فيجوز أن يكون تعلمها من جبرائيل بعد النبوة .

---

[٧٩] راجع : الباجي ٢٢٣،٢٢٤

وعند الشيعة أن (لا) في (لاتخطه بيمينك) للنهي لا للنفي ، غير أن عـدم الاقتصـار على النظرة الظاهرية للآية يضع بأيدينا على فرضية القول بأنه من الجائز أن يكتـب محمد ﷺ قبل الرسالة وبعدها .

- أيضا مما يعارض أدلة القائلين بالأمية ، الآثار والأحاديث التي تؤكـد علـى معرفـة محمد ﷺ بالقراءة والكتابة ، واضطلاعه في رسم الخطوط التي فاقت كتبـة الـوحي في عصره .

- يقول القاضي عياض:

وردت آثار تدل على معرفته ﷺ حروف الخط ، وحسن تصـويرها ، كقولـه لكاتبـه : ضع القلم على أذنك فإنه أذكر لك .

- وقوله لمعاوية : ألق الدواة ، وحرف القلم وأقـم البـاء ، وفـرق السـين ، ولا تعور الميم .

- وقوله : لاتمد (بسم الله)

وقل عياض : وهذا وإن لم يثبت أنه كتب فعلا ، فلا يبعد عن أن يرزق علم وضع الكتابة فإنه أوتي علم كل شيء .[80]

ألا يعارض هذا ماورد عن الرسول " نحن أمة أميـة " ،فأيهمـا نـرجح أونختـار؟ ! لعل ما ذكره الباجي في تعليقه على هذا الحديث ، ما يعضد وجهة النظر التي نتبناها ، قل :

هذا ـ الحديث ـ لا تعلق فيـه ؛ لأنـه مـن أخبـار الآحـاد الـتي لا يقـع لنـا العلـم بتضمنها وهو من جنس الحديث المروي في أنه كتب ، فلايجوز التعليق بأحدهما دون

---

[80] راجع :فتح الباري لابن حجر ٥٠٤/٧ ، ط: عالم المعرفة بيروت ، وقد ورد قوله ﷺ لمعاوية في كثير من المصادر الحديثية ، وفيها زيادة : " وحسن الله ، ومد الرحمن وجود الرحيم ، ويكره أن يمد السين قبل الميم " .

الآخر إلا بدليل .... فالنبي وصف الأمة بأنها أمية لا تكتب ولاتحسب ، ونحن نعلم أن منها من يحسب ويكتب ، كأبي بكر وعمر ، وعثمان ، وعلي ، ومعاوية ، وسهل بن ضيف ، وزيد بن ثابت ، وعبدالله بن مسعود ، وأبي بن كعب ، وجماعة غيرهم .

فعلمنا أن المراد به وصفهم في الجملة ، لا وصف آحادهم وأعيانهم ، أو نفي كتابة مخصوصة وحساب مخصوص عنهم ، لأنه محال أنه ينفي عنهم وعن نفسه جميع الحساب ؛ لأنه قد قال الشهر تسع وعشرون ، وقال : الشهر هكذا وهكذا وهكذا .

وورد القرآن أكثر من الفرائض ، وهذا كله نوع من الحساب ، وقد ورد الشرع بكثير من الفرائض ، وهو أدق أنواع الحساب ، فعلمنا بذلك : أنه أراد نفي حساب مخصوص وكتابة مخصوصة .[81]

– وتتقدم الآثار خطوة في القضية ، فيرد ما يدل صراحة على معرفته الحقيقية بالقراءة من لوحة أو صحيفة ، فيروي ابن ماجة وغيره عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(رأيت ليلة أسري بي على باب الجنة (مكتوبا) : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر .[82]

ويروي ابن حجر في فتح الباري (٥٠٤/٧) ماهو أصرح من ذلك في الدلالة على قراءته من مكتوب أمام الناس ، فعن سهل بن حنظلة أن النبي لما أمر معاوية أن يكتب للأقرع بن حابس وعيينة بن حصن ، قال عيينة : أتراني أذهب إلى قومي بصحيفة كصحيفة الملتمس ، فأخذ رسول الله الصحيفة فنظر فيها ، فقال: (قد كتب لك بما أمر فيها) .

ويذكر الكتاني في (التراتيب الإدارية ٢٤٩/٢) أن النبي محمد ﷺ كتب كتبا بيده ،

---

[81] راجع : الباحي٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦

[82] سنن ابن ماجة ٨١٢/٢ ، ط: دار الفكر بيروت .

ويتفرد الكتاني بذكر هذا الخبر، قال:

وفي (سمط الجوهر الفاخر) كتب ﷺ بيده كتبا لأهل الإسلام في الشرائع والأحكام .... عن ابن عمر قال :

كتب رسول الله كتاب الصدقات ، فلم يخرجه إلى عماله ، وقرنه بسيفه حتى قبض ، فعمل به أبوبكر حتى قبض ، ثم عمل به عمر حتى قبض ، فكان فيه كل خمس من الإبل شاة فذكره.

٥- يمثل الباجي اتجاها متكاملا في قضية (الأمية) فقد نسب الكتابة إلى النبي محمد ﷺ على سبيل الإعجاز ، انضماما للمعجز الخالد ، وهو القرآن ونسبة الكتابة إليه كمعجز يتماشى مع تفخيم شخصية المؤسس وتعظيمه ، وأثر ذلك في تطور الأديان . إلا أن هذه النظرة عاطفية أكثر منها عقلية إذ تنبع من حب النبي واعتباره الركن والعماد في الإسلام ، وهذه النظرة لاتتماشى مع المنطق العقلي ، إذ بحبه تنسب إليه معجزات لكي يتفوق على غيره من الأنبياء، أو يجمع كل الخوارق السابقة عليه بجانب القرآن .

نخلص من التعليق السابق على هذه الاتجاهات إلى :

١- بالنسبة للتصور الإسلامي ، فإن قضية (الأمية)لا يوجد بخصوصها نصوص قاطعة الدلالة في النفي أو الإثبات .

٢- لا ضير في القول بأن محمداﷺ قد كتب وقرأ بعد البعثة ، فمحمد ﷺ هو الإنسان الكامل ، أو بصيغة أدق الإنسان الإلهي الذي لقى عناية وتعليما وتربية من الرب الأعلى، وقد علمه ربه كل شيء ـ حسب عياض وغيره .

٣- تكفير القائل بعدم الأمية يعتبر فوضوية فكرية ، وانعدام للنظرة

التأصيلية والكلية لجوانب القضية ، وقد وقع فيها كثير من الإسلاميين .

٤- ورود كثير من الأخبار والآثار التي ترجح كفة معرفة محمد ﷺ بالقراءة والكتابة خاصة وأنه قد تمتع بأوصاف النبوغ والعبقرية والحافظة والذكاء الوقاد ، وهو ما سأتناوله في الصفحات التالية.

رأيي في الأمية

أحاول في هذه الفقرة أن أوضح رأيي في مسألة الأمية ، والذي أتى بعد تحليل للقرائن ، وليس انبعاثا من رغبة تريد المخالفة ، وأرى في هذه المسألة :

(أن محمدا ﷺ كان يقرأ ويكتب قبل الرسالة وبعدها)

وليس في ذلك ما يضر رسالته .

وبيان المسألة :

١- رأينا في بداية البحث أن المجتمع الذي عاش فيه محمد ﷺ طفولته وصباه عرف القراءة والكتابة والتدوين ، نعم لم يعرف على الصورة المنتشرة الآن ، ولكنه عرفه بصورة بسيطة ، ومن خلال المراجع التي تتحدث عن عرب ماقبل الإسلام ، أحصت الدراسات الحديثة أكثر من مائة كاتب وقارئ ومثقف ، وكان منهم من يتصل نسبه بـ محمد ﷺ وكان من أصحاب محمد ﷺ كتبة أيضا ، وكان من أزواجه الكتبة ، وإذا كان أقل الناس ذكاء وفطنة يتعلمون الخط بأدنى سعي ، ومن المعلوم أن محمداﷺ صاحب فطنة وذكاء ، وإن عدم تعلم هذا الشئ الأوّلي اليسير يدل على نقصان عظيم في الفهم ـ حسب تعبير الرازي ـ ومحمد ﷺ أعلى الأنبياء قامة ، وأكمل الخلق ، فلا بد أن يكون متعلما لهذا الشئ البسيط .

٢- إن النص القرآني لا يخضع لقواعد اللغة ؛ فتتصرف في لفظة وتقومها ؛ أوتشير إلى لفظة أدق في التعبير فتستبدلها بها ، بل إن قواعد اللغة التي وضعت في الأصل صيانة للنص القرآني من تحريف اللسن عند تلاوته هي التي تخضع

للقرآن ، باعتباره أكمل وجوه البيان العربي بشهادة جميع الدارسين له على المستوى العالمي ، وإذا كانت اللغة لم تقسر لفظة (الأمي) على الجهل بالقراءة والكتابة ، فما معنى أن يقسرها أهل الإسلام على هذا المعنى ؟!

نعم يراد بذلك أن تؤكد الصفة الإلهية للقرآن إلا أنهم بذلك يتناسوا التحدي القرآني القائم (قل فأتوا).

يضاف إلى ذلك أن القرآن كثيرا ما يعدل عن الاستعمال المعهود ، ويكسب الألفاظ دلالات خاصة .

وإن فقه اللغة المقارن يؤكد على صلة اللفظة بالمعنى المشروح في اللغة العبرية والتوراة (أميين = أمم علام) أي أمم العالمين من غير بني إسرائيل ، وكانت اللفظة تعنى بالتمييز بين اليهود وغيرهم ، وهنا تعني كلمة (النبي الأمي) النبي المبعوث من غير بني إسرائيل ، وهو ما تؤكده النصوص القرآنية التي وردت اللفظة بسياقها في الإفراد والجمع ، مقرونة بالحديث عن اليهود والنصارى وكتبهم المقدسة .

٣- قصة الغار:

تحمل هذه القصة دلالات تؤكد على معرفة محمدﷺ بالقراءة والكتابة، فالقصة تعتمد على رواية أن أول ما نزل من القرآن هو المقطع الأول من سورة العلق ، والذي يبتدأ بأمر (أقرأ) وتؤول الرواية الكلمة بمعنى قراءة نص ، والنص أتى به جبريل في مصحف من ديباج ، ويكون جواب النبي " ماأنا بقارئ " .

والتفسير الموروث للجملة السابقة ليس رفضا للقراءة فالنبي لا يعصي الأمر الإلهي ، بل هو إعلام من النبي لجبريل بجهله القراءة والكتابة بالمعنى المعتاد.

لكن هذا التفسير يناقض النص القرآني الوارد فيما بعد في سورة النجم (علمه شديد القوى) ، كما يناقض النص المتصل بالأمر (اقرأ) في قوله (علم بالقلم).

فالقرآن رسالة الله إلى أهل الأرض ، وهي رسالة من عليم حكيم ، فكيف يتفق أن يكون أول أمر له على لسان أمين الوحي (جبرائيل) (اقرأ) وهو يخاطب جاهلا بالقراءة والكتابة.

وحسب رواية ابن هشام في السيرة قال محمد لجبرائيل : ماذا أقرأ ، إذن لم تكن الإشكالية عنده في الأمر بل في المقروء نفسه ، وإلا فمامعنى (ماذا أقرأ) ؟

ويقترن بالأمر (اقرأ) قوله تعالى : (الذي علم بالقلم) ، فماالداعي لذكر القلم على سبيل تعريف محمدﷺ بصفات الرب الأعلى ، إلالمخاطبته بما يعرف محمدﷺ قيمة ، يتجلى ذلك واضحا في تكريرية الخطاب القرآني الأول لمحمدﷺ بأدوات القراءة والكتابة ، فثاني السور نزولا والتي تسمى سورة (القلم) يقسم الله في أول آية فيها بـ :(القلم) والورق ومافي حكمه ، والمكتوب (مايسطرون) فلايظن أن يخاطب شخصا في أول أوامره وكلماته بما يجهله.

يضاف إلى هذا ، المسألة التعليمية التي أكد عليها القرآن حين دفاعه عن محمد ﷺ وإظهار صفاته ضد منتقصي قدره من معاصريه فيذكر القرآن قوله : (علمه شديد القوى) فماذا يتعلم محمد من جبرائيل الموصوف بـ (ذو قوة) ، و (شديد القوى)، هل يتعلم ترديد الآيات وتكرارها وراءه حتى لا ينسى ؟

إن هذاأمر بسيط ـ أقصد مسألة التلقين ـ لايحتاج إلى تعنيف جبرائيل الذي يستخلص من صفاته القرآنية ، ومن الروايات الحديثية .

على أنه مما يذكر أنه ذكر في الخطاب القرآني الأول : (فاقرءوا ماتيسر منه) تأكيدا لقوله (فاقرءوا ما تيسر من القرآن) ، فهل كان أصحاب محمدﷺ الأول يفوقونه في العلم حتى يقرؤا ما لا يستطيع هو أن يقرأه ؟

ولا يقلل من قيمة التساؤل أن محمدا ﷺ كان يحفظ القرآن عن ظهر قلب ، فإن القرآن هو أحب شيء إلى قلبه ، وهو رسالته الرئيسة المقصودة بالبلاغ ، فالنظر

إليه قربة ، وكيف يتقرب بما هو مجهول بالنسبة له .

على أنني أقصد من ذكر الآيتين السالفتي الذكر إظهار الأوامر بالقراءة (فاقرءوا) (فاقرءوا) بجانب (اقرأ ، اقرأ) و (بالقلم) (القلم) ، و(ما يسطرون) ويظل السؤال قائما إذاكان محمد ﷺ جاهلا بالقراءة ، والكتابة : ماقيمة كل هذه الأوامر الأولى والتقريرات ؟!

٤- ذكرت طرفا من معنى (الأمي)،(الأميين)، وهنا أؤكد على أنه لا دليل على قسر اللفظة على معنى : (الجهل بالقراءة والكتابة)

خاصة وهناك ما يؤكد على ذلك في كتب اللغة والقواميس العربية ، فالقرآن يعبر عن الأميين بقوله : (لا يعلمون الكتاب إلا أماني) ثم يقول : (وهوالذي بعث في الأميين رسولا منهم)

ويقول الفراء : الأميون هم العرب الذين لم يكن لهم كتاب ، ولعل ذلك يعطي تفسيرا مناسبا لماقامت عليه العنصرية اليهودية في ربطها للمصطلح (أميين) بالدهماء والغوغاء ، فكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فالأميون (جهلاء بالكتب السماوية = وثنيون في التصور اليهودي) ، والأمي (مبعوث من بين هؤلاء = جاهل بالكتب السماوية القديمة) وهو ما أكد عليه القرآن : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ـ أي كتاب مقدس (توراة ـ إنجيل ـ زبور)).

قال تعالى: مؤكدا عدم اتصال محمد ﷺ بالكتب الأخرى ـ :

(وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وماكنت من الشاهدين ، ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر ، وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلوعليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين ، وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة

من ربك لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون) .[83]

(تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل)[84].

معنى التلاوة ، والتخصيص (من قبل):

٥- يقول الله تعالى :

(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك)

على عكس مايمليه التصور العام في تفسير هـذه الآيـة ، تحمـل الألفـاظ دلالات خاصة تؤكد على معرفة محمد ﷺ بالقراءة والكتابة ، وعدم نفيها عنه .

* فكلمة (كتاب) تطلق في معظم حالاتها ويراد بها الكتب السماوية ، قال تعالى : (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى)[85] .

لكن المثبتين للأمية عمموا بها كل كتاب من عندالله أو من عندالبشر.

وكما يقول لخضرشايب : إن مدار تحديد معنى هذه الآية لايتم إلا بالتعرف علـى الفعـل (تتلـو) خاصـةعند وروده في القـرآن بالـذات ، خصوصـا وأن النظـر في المعاجم اللغوية غير ذي جدوى ؛ لأنها ليست قاطعة في تحديد معنى لهـذا الفعـل الذي يدل على قراءة القرآن ، أو غيره من الكتب الدينية .

- تنصرف دلالة الفعل (تتلـو) في القـرآن إلى معنـى قـراءة الكتـب المقدسة ، فلم يرد في جميع تصريفاته إلا دالاعلى هذا المعنى .

- صيغة : يتلو ، وتتلو: (يتلوصحفا مطهرة ـ يتلو عليكم آيـات الله ـ يتلو عليهم آياته ـ يتلو عليهم آياتنا ـ وما تتلومنـه مـن قـرآن ـ يتلـوعليهم

---

[83] القصص : ٤٤ -٤٦

[84] هود : ٤٩

[85] الأنعام ٩١

آياته ـ يتلوعليهم آياتك ـ يتلو عليكم آياتنا ـ تتلوعليهم آياتنا) .[٨٦] إلى جانب الآية الرئيسية في موضوع البحث (وما كنت تتلو من قبله من كتاب) .

- كماورد الفعل بصيغة (يتلون) في القرآن في خمسة مواضع :

(وهم يتلون الكتاب ـ يتلون آيات الله ـ يتلون عليهم آياتنا ـ يتلون كتاب الله ـ يتلون عليكم آيات ربكم)[٨٧] .

- وبصيغة (تتلون) مرة واحدة (تتلون الكتاب)[٨٨].

- وبصيغة (اتل) مرة واحدة (اتل ما أوحي إليك من الكتاب)[٨٩].

يتضح بعد هذا التتبع للفظة (التلاوة) في القرآن أن المعنى المراد في قوله تعالى : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب) هو :

نفي اتصال النبي محمد ﷺ بكتب الديانات السماوية السابقة على الوحي القرآني ، لا على نفي القراءة والكتابة عنه ، ومن هنا فليس في الآية أي دليل على نفي القراءة عنه ﷺ ، ولا معنى للإمساك بالقيد (من قبل) باعتباره مخصصا عند من قال بقراءة النبي بعد الوحي ، إذ النكتة في معنى اللفظ المنفي (تتلو) ، فإذا ما تحدد معناه ، فلا قيمة لما بني عليه من فهم يبعد عن الدلالة القرآنية للكلمة على المستوى العام .

ويؤكد هذا الرأي الذي تابعناه :

---

[٨٦] البينة ٢ ، الطلاق١١ الجمعة ٢ ، القصص ٥٩ ، يونس ٦١ ،آل عمران ١٦٤، البقرة ١٥١، ١٢٩، القصص ٤٥.

[٨٧] البقرة ١١٣ ، آل عمران ١١٣ ، الحج ٧٢، فاطر ٢٩ ،الزمر ٧١.

[٨٨] البقرة ٤٤.

[٨٩] العنكبوت ٤٥

أنه لو أراد الله أن ينفي عن محمد القراءة والكتابة نفيا لا يحتمل التأويل ، لاستخدم الفعل (تقرأ) خاصة وأن دلالته تنسكب على النفي العام للقراءة إذا ما قرن بـ (ما) ، ودلالة الفعل نفسه في القرآن تنصرف إلى المكتوب البشري في الأغلب الأعم :

(يوم ندعوكل أناس بإمامهم ، فأما من أوتي كتابه بيمينه ، فأولئك يقرءون كتابهم ـ الخاص بهم ـ)

ويتحدث الإنسان يوم الحساب الأكبر بقوله (هاؤم اقرءوا كتابيه) يتأكد لدينا إذن أن في عدم استخدام القرآن للفعل (تقرأ) عوضا عن (تتلو) دليلا صريحا على عدم اتصال محمد ﷺ بالكتب السماوية السابقة ، لا تعليمنا أنه كان أميا جاهلا على المستوى العام .

٦- نقل القرآن مزاعم المشركين التي أرادوا أن يشنعوا بها على النبي محمد ﷺ، وكان من جملة هذه المزاعم :

(وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا، وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا)[٩٠]

زعم المعارضون لـ محمد ﷺ أنه استمد القرآن من مصادر خارجية أعانه عليها بعض العارفين بالكتب السماوية ، فما القرآن إلا بعض الأساطير القديمة قد قام محمد بنقلها .

وإذا كان المعارضون يفترون فإنهم يعتمدون على فرضية (أن محمدا كاتب وقارئ) وحينما أراد القرآن أن يدافع عن محمد حيال هذه المزاعم قال :

---

[٩٠] الفرقان ٤، ٥

(قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض)[91]

يقصد التأكيد على إلهية القرآن ونفي المصادر الأجنبية عن التأثير في تكوين النص القرآني .

فإذا كان محمد ﷺ أميا ، لايقرأ ولا يكتب ، لم يكن القرآن ليتوانى عن دفع هذه التهمة ، خاصة وأنه قد تعقب المزاعم وفندها ودحضها في مواضعها ، فلابد أنه كان قارئا كاتبا.

٧- ماذا يضر محمدا لو كان قارئا أو كاتبا حتى يتحفظ الجميع ؟!

لا تضر محمداﷺ القراءة والكتابة ، ولن تقلل من قيمة الوحي (القرآن) خاصة وأن تناول القضية من الآخر (المخالف لمحمد ﷺ دينيا) ، يتحدث عنه كشخصية تاريخية ، ويعتمد على تحليل النصوص المتصلة به ، سواء كانت قرآنا أو سنة ، وفي القرآن مايساعد على تأصيل هذه النظرة ، ولا ينفيها ، وفي السنة ما يعضد ذلك ، والأصول الإسلامية والعقدية تظل بعيدة عن المساس حين التحدث في هذه القضية .

فـ محمدﷺ ماهو إلا بشر رسول .

و محمدﷺ اتصف قبل الإسلام بالصدق والإمانة .

و (الرسول) الذي يبلغ رسالة إلى أحد إذا اتصف بهاتين الصفتين لا يخشى منه على المساس بأصول الرسالة ، أو حتى التدخل في فتحها وقراءتها إلا أمام المرسل إليه ، وقد يرد أحيانا أن أحد المرسل إليهم يكلف آخرا (غير الرسول) بقراءة الرسالة ، مما يؤكد على انعدام تدخل الرسول في الرسالة .

والقرآن نفسه جزم على إلهيته ، وصرح بأن محمدا ﷺ لا دخل له في أي من شئون صياغة النص ، فلم يكن محمد مع موسى أو عيسى ، أوعاد وثمود ، ولامع صالح ،

---

[91] الفرقان ٥

حتى يحكى عنهم هذه التفاصيل التي خلت منها الكتب السابقة (الإلهية).

وعليه :

فلا ضير بالقول : بأن محمد كان قارئا أوكاتبا خاصة إذا حدد ذلك بالكتب العادية، غير المقدسة ، وهذا يتماشى مع النصوص القرآنية بدقة .

أمية محمد في الفكر الاستشراقي

شغلت مسألة أمية محمد ﷺ مساحة كبيرة في دراسات المستشرقين ، حتى إنه ليندر ألا يعرض لها أحد المستشرقين في كتاباته عن الإسلام بالبحث الجاد أو العرضي ، رغم أنها عديمة التأثير في إثبات النبوة أوعدمها ، ولكنها تعد قضية محورية في مرحلة إعداده ، وإعداد كتابه (القرآن) ، وانقسم الباحثون منهم تجاه هذه القضية قسمين :

- قسم رأى أن محمدا قد عرف القراءة والكتابة منذ زمن مبكر ، واستدل على رأيه بما ورد في التراث الإسلامي (تاريخ ـ أشعار ـ آثار ـ أحاديث)

مؤيدا وجهة نظره ، على أن ذلك يعد ملمحا هاما بالنسبة له في تأليف النص القرآني ، وصياغته اعتمادا على المصادر القديمة والديانات السابقة.

- قسم تبنى النظرة الإسلامية العامة ، والتي تؤكد على أمية محمد وجهله التام بالقراءة والكتابة ، لكنه لا مانع من تأثر محمد الشفهي بالمصادر الخارجية (توراة ، إنجيل) والتي يلمح أثرها الواضح في النص القرآني .

ونفصل القول أولا في القسم الثاني نظرا لوجازته :

١- ويمثل هذا القسم الذي يتماشى مع الجمهور الإسلامي، كـ(أماري ، وكازيميرسكي ، ومونتيه ، و ول ديورانت ، و نيكيتاإيليسف ، وكارين أرمسترنج).

فيتحدث (ول ديورانت) عن محمد في بداية حديثه عن الإسلام ، ويرى أنه لم يتعلم ، ويرجع سبب ذلك إلى عدم اعتناء الآخرين به ، وبصورة أوضح (اليُتم)

كان سببا في حرمانه من التعليم والثقافة الموسوعية ، إلا أن قوله ينبع من نظرة سطحية غير تأصيلية لمؤرخ مثله ، فيقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه البلاذري في إحصاء الكتبة في مكة ، قال :

(ولكن يبدو أن أحدا لم يعن بتعليمه القراءة والكتابة ، ولم تكن لهذه الميزة قيمة عند العرب في ذلك الوقت ، ولهذا لم يكن في قبيلة قريش كلها إلا سبعة عشر رجلا يقرؤون ويكتبون ، ولم يعرف عن محمد أنه كتب شيئا بنفسه ، وكان بعد الرسالة يستخدم كاتبا خاصا ، ولكن هذا لم يحل بينه وبين المجيء بأشهر وأبلغ كتاب في اللغة العربية)[٩٢].

فعلى الرغم من تبنيه الرؤية الإسلامية العامة التي تفترض أن محمدا كان جاهلا بالقراءة والكتابة ، إلا أنه يعتبر القرآن أثرا لمحمد نفسه ، وتعبر عن هذا الزعم (نيكتياإيليسيف) بصورة أصرح فتقول :

(الظاهر والمؤكد أن محمدا لم يعرف سوى العربية لسانا وعن طريق المحادثات الشفهية فقط استطاع أن يحيط علما بالتوراة والإنجيل ، دون أن يستعملها تعبدا وتطبيقا، بل ظل يجهل محتواها الحقيقي ، فإلى جانب التأثيرات اليهودية الأكيدة ، نلاحظ تأثيرات مسيحية من مختلف الاتجاهات النسطورية والتوحيدية في القرآن ، ولكن لا بد من الإشارة إلى أن الإسلام ، خلافا للمسيحية لم يبن لا على المحبة ولا على الأمل ، بل على الإيمان المطلق بالله).[٩٣]

فالمقصد الرئيس في القضية ، هو إثبات التلفيق والتأثيرات للنص القرآني ، ولكن القران يشهد بذاته على عظمته ، فلم تتدخل فيه يد بشرية على الإطلاق

---

[٩٢] راجع : ول ديورانت (قصة الحضارة) الترجمة العربية ، ط: الهيئة العامة للكتاب .

[٩٣] راجع : نيكيتا إيليسيف (الشرق الإسلامي في العصر الوسيط) ص٥٩ ترجمة منصور أبوالحسن ، دار الكتاب الحديث بيروت .

- على الرعم مما ينسج حول جمعه وتدوينه وقراءاته من أوهام وأقاويل تافهة -
فهل كان محمد عارفا بالتوراة والإنجيل والزبور، هذه المعرفة الشاملة حتى ينسج
قصصا ترد في القرآن فيما بعد، وتوضح معالم أخرى لم ترد في النسخ الحالية من
هذه الكتب.

ومن أين علم محمد الأخبار التاريخية عن أصحاب الكهف، وذي القرنين،
وقوم صالح، وإدريس ؟!

ولو كان محمد قد اعتمد على نسخ من الأناجيل المزيفة هي التي أوحت له
بكل هذه المعلومات القيمة، التي شكلت فيما بعد نصا حار الجميع أن يضاهوه
، وعندما حاول البعض – على فرض صحة المعارضات – خرج من بين يديه
مخلوق شائه.

وعلى فرض أن محمدا كان عارفا بهذه الأناجيل، ومعرفته لم تنتج عن احتكاك
مباشر بالنصوص، ولم تتولد عن خبرة عميقة، وأنتج القرآن فيما بعد، إذن
فاليهود والنصارى المعاصرون له ماهم إلا مغفلون وسذج، يستحق أن يسود
عليهم هذا المؤلف العظيم.

وإذا كانت قد وردت أنباء عن أحبار ورهبان نصارى كانوا على دراية
بالأناجيل والتوراة، وكانو ا يترجمونها عن اللسن الأخرى، أمثال ورقة بن نوفل
، فلماذا لم يصل إلينا منه مثل ما وصل من عبقرية محمد؟!

الحقيقة أن محمدا لم يكن له أية مساهمة في بناء النص القرآني، والقرآن
نفسه يؤكد ذلك بتكرارية، ويتحدى من يقول بخلافه، ولم يقف أمام تحديه أحد
حتى الآن، ويتوصل العلماء في مجال البحوث العلمية والفلكية والكونية إلى
أمور يرون جذورها الأولى في القرآن الموجود من مئات السنين، ويقفون متأملين

لابد أن شيئا أكبر من المخلوقات هو من ألف هذا النص القرآني.[٩٤]

● وممن تبنى النظرة الإسلامية العامة في قضية (الأمية) كارين أرمسترنج، وهي باحثة محايدة، لم نجد فيما بحثنا بخصوص هذه القضية ـ رأيا محافظا مثل رأيها، ونثبته بنصه نظرا لنزاهته وحيادته، تقول الباحثة:

كثيرا مايدعى محمد في القرآن النبي الأمي، أي: الذي لايعرف القراءة ولا الكتابة، ويؤكد الاعتقاد في أمية محمد على الطبيعة الإعجازية للتنزيل.

غيرأن بعض الدارسين الغربيين المحدثين، يذهبون إلى أن لقب (أمي) لايجب أن يفسر على أنه: جهل بالقراءة والكتابة؛ إذ أن النبي كتاجر قد يكون ألم بمبادئ الكتابة، أما المعنى الذي يذهبون إليه فهو أنه كان نبيا للأميين الذين لم يتلقوا كتابا سماويا من الله، وبمعنى آخر يفسر لفظ الأمي على أنه: يعني غير اليهودي.

(النبي المرسل لغير اليهود gentiles)

وواصل البعض من هذا المنطلق تأكيدهم: أن لفظ أمي متصل بلفظ أمة ويعني في هذا السياق نبي القوم، وفي الواقع فإنه ليست هناك صلة بين أمي وأمة، كما أن المسلمين يجدون هذا التفسير مهينا.

ولقد رأينا كيف أن الغربيين ولمدة ألف سنة تقريبا ـ لم يستطيعوا الاعتقاد أنه كانت لـ محمد رسالة نبوية حقا، ويبدو أن تفسيرهم للفظة (أمي) محاولة منهم لشرح ماحدث.

غير أنه من الحماقة أن نتحدى التفسير الموروث للمسلمين للفظ (أمي) كما

---

[٩٤]: كانت هذه الدراسات سببا في إسلام كثير منهم، على سبيل المثال الطبيب الفرنسي موريس بوكاي وألف كتابا فيما بعد أثبت فيه إعجاز القرآن العلمي وإلهية مصدره، إلا أن هناك محاولات مناهضة له ولمثله، راجع دراسة وليم كامبل (القرآن والكتاب المقدس في نور التاريخ والعلم).

أنه لا يوجد في المصادر الأولى : أي ذكر عن قدرة محمد على الكتابة والقراءة ، وحينما كان يحتاج لإرسال خطاب كان يمليه على أشخاص مثل على الذي كان ملما بالقراءة والكتابة ، ولو كان صحيحا أن محمدا قد أخفى مقدرته على الكتابة والقراءة طيلة حياته ، لكانت تلك خدعة كبرى .

وخلافا لكون ذلك منافيا لطبيعته ، فإنه من الصعب جدا الإبقاء على مثل تلك الخدعة ، إذا نحن أخذنا في الاعتبار حميمية الصلة بين محمد وقومه .

إن التأويل الشائع للفظ (أمي) هو تأويل مبكرجدا ، وهو أيضا من الأهمية بمكان لدى المسلمين ، فإن له نفس أهمية الميلاد العذري في المسيحية ، والتي تؤكد على النقاء اللازم للرجل أو المرأة ، كما يأتي بكلمة إلى الناس ؛ لأن التنزيل لايجب أن يشوبه أو تتدخل فيه إضافة إنسانية خالصة .[٩٥]

فقد حاولت الباحثة أن تلخص وجهات النظر في سطور قليلة ، والتي رفضتها نظرا لمردودها السيء الذي يسلب القرآن رسالته الإلهية ، وذهبت سابحة مع التيار الإسلامي العام حتى تكون أمينة في عرضها لحياة محمد .

- ويرى القسم الآخر أن محمدا كان يعرف القراءة والكتابة ، بل كان على دراية واسعة بالأديان السابقة ، وثقافة موسوعية ، انبعثت من مكثه على الدرس والتعليم ، مماكان له أثر واضح في صياغة النص القرآني .

ويمثل هذا الاتجاه :

(جولد زيهر ، وررودلف ، ولامانس ، وبلاشير ، وسبرنجر ، وفنسنك ، وهورفيتز، وفرانتس بول ، ونللينو).

وتتلخص جملة آرائهم فيما يلي :

انصرف الجمهور الإسلامي إلى التأكيد على أمية محمد ، وكان هدفه من ذلك

---

[٩٥] : راجع : كارين أرمسترنج في كتابها (محمد) ص ١٣٥، ١٣٦ الترجمة العربية ط: سطور القاهرة .

إثبات النبوة المحمدية ، وذلك عن طريق إثبات المعجزة التي تتأكـد بالمقابلـة بـين جهله بالقراءة والكتابة ، وبين إتيانه مع هذا بكتاب احتوى على علم لايوجد له مثيل ، على أن كلمة (أمي) يجب أن تفسر بأنه شخص ينتسب إلى جماعة ليس لها كتاب سماوي على عكس اليهود والنصارى ..

ولا ضير في هذا التصور دون انعكاساته الخارجية ، فهو تصـور يعتمـد علـى استقراء المجتمع العربي ، الذي أحب نبيه محمدا ، ونتيجة لهذا الحـب ، حـاول أن يحافظ على إثبات المعجزات له ، حتى تظل مكانته عالية وسط الأنبيـاء ، وحتـى تتأكد عالمية رسالته وختمهـا ، وهـو مـا يتناسـب مـع تطـور الأديـان ، وتفخـيم شخصية المؤسس على أن ذلك ملمح طبيعي ظاهر في جميع الشعوب الدينية .

● انقسم المجتمع الغربي فيما قبل الإسلام إلى أهل كتاب (اليهود والنصارى) كان لهم وحي منزل من عندالله ، وإلى وثنيين لم يكن لهم أي اتصل بكلمة الرب، ولذلك سمى اليهود غيرهم (أميين = وثنيين) ، وعليه فإن (الأمي) = الوثني .

ويصدق هذا التفسير من الناحية اليهودية ، فـإن لفظـة (أمـيين) تنصـرف لديهم على كل الشعوب الأخرى الراتعة في بحور الخطايا ، والمتخبطة في الضلال والهوى وعبادة الأوثان ، وتجد هذا التفسير واضحا في الكتاب المقدس ، وهـو مـا يتوافق مع النص القرآنـي الـذي كـثيرا مـا يشـيرإلى احتقـار اليهـود لغيرهـم ، واعتبارهم شعب الله المختار.

ولكنه تفسير مرفوض إسلاميا ، لسببين:

١- يقول فرانس بول :

(إنه لمن المثير للدهشة أن يقتبس من اليهود كلمة في لغتهم تعني الاحتقار)

كيف تعني كلمة أمي (وثني) والنبي وصف بأنه أمـي في القـرآن في معـرض مجادلته وحوراته مع اليهود ، ومن غير المعقول والمخالف للواقع أن يوصف النبي من قبل ربه بأنه أمي ، وهو يقصد كافرا وثنيا ، لأن أمي بهذا المعنى تكون صفة

إهانة وتحقير .

٢- يقول عبدالرحمن بدوي ـ مبينا المعنى العبري للكلمة (أمي = جويم) :

كلمة (جويم) موجودة في التوراة (سفر التكوين ١/١٤) في عبارة :

(تدعال ملك جويم ، وتدعال كان أحد ملوك أربع شنوا الحرب ضد برشاع ، في وادي الأردن) ومن الممكن أن يكون تدعال هو نفس الملك المشهورهتييتي تودهـا ، أما معنى كلمة جويم :

فإنها تطلق على شعوب الإمبراطورية الحيثية :

وكذلك تطلق (جويم) على منطقة أعلى الزاب ، ففي كتاب يشوع ، كان أحد الملوك الكنعانيين ، الذين غلبهم يشوع اسمه : ملك جويم الجلجال، كما جاء في الترجمة الإخائية باسم (ملك جلجال الغريب) ـ القاموس الموسوعي للتوراة جويم تورنهدت ـ بريولس ١٨٩٦م.

وعلى العموم فكلمة (جويم) في العبرية تعنى الأمم ، ويمكن أن تكون ترجمة للكلمة الأكادية (عومان).

وهكذا نرى أن كلمة جويم لم تكن واضحة لدى اليهود ، ولا معروفة عند العرب قبل الإسلام ."[96]

مما يعني أنه لا يصح إطلاقها بهذا المعنى (الوثني) على النبي محمدﷺ نظرا لأن التحليل الدلالي للكلمة لايعطي هذا المعنى إطلاقا، إضافة لمردودها المهين ، والذي لا يعقل أن يوصف بها نبي من عندالله ."[97]

---

[96] راجع : عبدالرحمن بدوي . دفاع عن القرآن ضد منتقديه . الترجمة العربية ص ١٥، ١٦/ ط: دار العالمية للكتب . القاهرة .

[97] من الممكن حسب التصور اليهودي للأنبياء أن يوصف النبي بعبادة الأوثان ، راجع ما ترويه التوراة عن هارون ، على عكس ما تتبناه الرؤية الإسلامية من تنزيههم وعصمتهم .

٣- يرى (بول) أن محمدا كان يعرف القراءة والكتابة لكن الكتب المقدسة لدى اليهودي والنصارى لم تكن مفهومة لديه ، ويستخلص عبدالرحمن بدوي من أقوال (بول) في قضية الأمية : أن محمد كان يعرف القراءة والكتابة ، ولكنه فقط لم يقرأ التوراة مباشرة بل من خلال الذين علموها له .

ثم يعقب عبدالرحمن بدوي على كلام (بول) الذي نقله من كتاب (حياة محمد) الترجمة الألمانية هيدبرج سنة ١٩٥٥م ، قائلا ـ ماملخصه :

أن محمد رجل غير عالم بالأمور الدينية أي جاهل دينيا ـ حسب بول ـ وفيما يتعلق بنبي مؤسس دين فإن هذا الوصف مثيرللسخرية ، إذ كيف يمكن أن يصف النبي محمد نفسه أمام اليهود والنصارى بأنه رجل جاهل بالمسائل الدينية ، ولذلك نرى بول أكثر عبثية من فنسنك وهورفيتز.[٩٨]

والكلام الذي نقله بدوي لايدل على مااستخلصه من نتائج ، إلى جانب أنه ليس مخالفا للواقع بل متأصلا من النصوص القرآنية ، فمحمد بالفعل كان جاهلا بالأمور الدينية لدى اليهود والنصارى ، فلم يعرف شيئا من كتبهم ، وليس هناك دليل واحد على معرفته بالكتب المقدسة ، إلا حين يعلمه ربه بشيء مما جرى ذكره عندهم ، ويكون عن طريق الوحي (الذي يتلى فيما بعد أمام الجميع ، ولعل ما حمل بدوي على استفزاع الوصف أنه فهم أنهم يصفون محمدا بالجهل العام حتى في أمور دينه ، وهو مالم ينقله عن بول .

٤- يرى (نللينو) أن كلمة أمي مشتقة من الأمة العربية خاصة ، ويأخذ المصطلح لديه بعدا عرقيا ومتعصبا للقومية .

لكن هذا الرأي سرعان ما يتلاشى أمام النظرة التاريخية لحياة محمد ، فنللينوأقام رأيه على فرضية خاطئة ، وهي : أن محمد مبعوث إلى العرب خاصة شأنه شأن موسى

---

[٩٨] راجع : بدوي ، مرجع سابق ص١٦، ١٧

حينما بعث إلى شعب إسرائيل ، وعيسى حينما بعث إلى الأمـة الفلسـطينية ، وهـذا خطأ.

لأن محمد سنة ٦٢٨م أرسل خطابات إلى ملوك العالم الأربعة في عهده وهم :

- هرقل الثاني إمبراطور بيزنطة .
- كسرى أنوشروان ملك الفرس .
- المقوقس حاكم مصر .
- ملك الحبشة .

وهذا يدل على عمومية رسالة محمد، إذ لوكان مبعوثـا خاصـا بـالعرب وحـدهم ، فلماذا يرسل إلى هؤلاء يدعوهم إلى اعتناق دينه ، هل كان يعبث ويحاول السيطرة على الجميع من تلقاء نفسه ، الحقيقة التاريخية تشهد برجاحة عقله وحكمته .

إلى جانب أن هناك نصوص قرآنية وردت تؤكد عالمية رسالة محمد ، مثل :

(وأرسلناك للناس رسولا)[٩٩]

(وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراونذيرا)[١٠٠]

(قل ياأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا)[١٠١]

وإذا أخذنا في اعتبارنا التحليل التالي لكلمة (أمي) سقطت دعوى نللينو.

أمي : صفة نسب من كلمة (أمم) جمع أمة ، وهي مشتقة من الجمع المردودة إلى أمـة في المفرد ، والتي تعني : عالمي وصالح وموجه لكل الأمم ، وعليه فإن (الأمي) في القرآن تعني : (النبي العالمي) ، والأميين تعني البشر من كل الأمم أو من مختلف الأمم .

---

[٩٩] النساء :٧٩

[١٠٠] سبأ : ٢٨

[١٠١] الأعراف :١٥٨،

ملاحق

ملحق رسالة تحقيق المذهب لأبي الوليد الباجي

قال الفقيه الإمام الحافظ القاضي أبوالوليد سليمان بن خلف الباجي رضي الله عنه :

الحمدلله الذي بنعمته تتم الصالحات وتنمي البركات ، وصلى الله على محمد نبيه وصفوته من خلقه وآله وسلم تسليما .

أمابعد يا أخي وفقك الله :

فإنك ذكرت لي أنه جرى في مجلسي من تفسير حديث النبي ﷺ في الكتاب الذي قاضي عليه قريشا يوم الحديبية أن بعض الناس قد ذكر أن النبي ﷺ كتب في ذلك اليوم ومنع من ذلك بعضهم .

والحديث مما يتعلق به كل فريق منهم فأجبت حسب ما تقتضيه مجالس المذاكرة ومواضع التعليم مما لا يعرى عن فائدة للمنتهي ولا يحير بالإكثار خاطر المبتدي .

وذكرت أن بعض من بلغه ذلك أنكره إنكارا جاوز فيه الحد وأعظم به الخطيئة ، وزعم أن في هذا إبطال المعجزة ورد الشريعة وتكذيب القرآن .

وسألتني أن أكتب لك في ذلك ما يعول عليه وأبسط القول فيه بأكثر مما جرى في المجلس المذكور وأنسب الأقوال إلى القائلين بها وأبين وجوهها و وجه بطلان قول من أعظم إنكارها وأنبه على الصحيح منها ، إذ قد وقع فيه من الإشكال ما أحوج إلى البيان ، فأجبتك إلى ما سألت لما يتعين على من إيضاح الحق وإظهاره ولما رغبته

من منفعتك وأقصده من تعليمك وتفهيمك .

وأنا إن شاء الله آتي من بيان حقيقة المعجز ورواية هذا الحديث وأقوال المختلفين في تأويله وإيضاح الحق في ذلك بما فيه كفاية .

والكلام في هذه المسألة يكون في ستة أبواب :

أولها : في ذكر المعجز وبيان صفاته التي بها يتميز من غير المعجز .

والثاني : في وجه تعلق كون النبي ﷺ آتيا بالمعجز .

والثالث : في إيراد الحديث المذكور واختلاف الرواة فيه .

والرابع : في ذكر أقوال الناس في تأويل هذا الحديث وتعلق كل واحد منهم بلفظه وذكر غير ذلك من وجوه حججه مما (١٠٥/ب) أورده عن نفسه ، ومما يلزمني أن أورده له إكمالا لحجته .

والخامس : في إبطال قول من قال : إن في أحد هذه الأقوال ما يبطل به المعجز ويتغير به الشرع أو يرد شيئا من القرآن .

والسادس : في بيان أصح الأقوال في هذه المسألة وما يجب أن يعتمد عليه منها .

الباب الأول

وأما ما وصفنا المعجز بأنه معجز، فإن المراد به في اللغة ما يتعذر على قدرة الإنسان نيله .

يقال: طلب فلان فلانا، فأعجزه، إذا تعذر عليه إدراكه ،وهذا أمر أعجز الأولين والآخرين، بمعنى تعذر على قومهم ولم تنته إليه طاقتهم .

ثم استعمل في الشرع، في وصف ما أتى به الرسل عليهم السلام معجزا، لصفات هو عليها، إذا عري عنها أو عن واحدة منها لم يوصف بأنه معجز ، وإذا تجمعت فيه وصف بأنه معجز وهي ثمان صفات :

أحدها : أن يكون الفعل الموصوف بأنه معجز من فعل الله تبارك وتعالى وما يجري

مجرى فعله .

والثانية : أن يكون أمرا خارقا للعادة .

والثالثة : أن يكون معه دعوى الرسالة .

والرابعة : أن يتحدى به من هو دليل عليه .

والخامسة : أن يقارن الإتيان به معنى الرسالة .

والسادسة : أن يكون بينه وبين مدعي الرسالة تعلق.

والسابعة : أن يكون موافقا لدعواه غير مناقض له ولا مكذب به .

والثامنة : أن يكون جنسه غير داخل تحت قدر العباد، في قول جماعة من شيوخنا . وقال بعضهم يدخل جنسه تحت قدر العباد ، إلا أن الوجه الذي له كان معجزا لا يدخل تحت قدر العباد.

وإنما قلنا إن من صفاته المشترطة في كونه معجزا أن يكون من فعل الله ،لأن ظهور المعجزة على يد مدعي الرسالة بمنزلة قوله تعالى : صدق هذا رسولي .

فيجب أن يكون المعجز من فعله ليكون تصديقا له .

لأنه متى ادعى على زيد أمر من الأمور فقال: عمرو صدق، لم يكن في ذلك تصديق للمدعي من زيد حتى يقول : صدق .

فيجب أن يكون التصديق من قبل المدعى عليه الرسالة ومن فعله .

وقولنا : أو ما يجري مجرى الفعل نريد بذلك: الإعدام ،لأنه لو قال النبي - عليه السلام- أنا رسول الله ، وآية ذلك : أن الله يعدم الآن هذا الجبل ويفنيه ولا يبقى له عين ولا أثر (١٠٦/أ) ثم يفعل له ذلك ، لكان معجزا ، ودليلا على صدقه، وإن لم يكن الإعدام والإفناء عند شيوخنا فعلا .

فصل

وإنما قلنا: إن من شرطه أن يكون خارقا للعادة ، لأن الأفعال المعتادة ليس لمدعي الرسالة أن يقول هي دليل على صدقه إلا ولمنكرها أن يقول هي دليل على كذبه وصدق مخالفه ، لأنه إذا قال أنا رسول الله وآية هذا أنه إذا قطع رأس هذا الإنسان مات ، وإذا جاوز هذا الثوب النار احترق ، كان لمخالفه أن يقول له : هذا دليل على كذبك ، وكان إكذاب مدعي الرسالة يناقض رسالة الأول ويخالفها، أن يجعل ذلك أيضا دليلا على صدقه وكذب مخالفه ، فوجب أن يبطل ذلك كله ولا يكون فيه دليل على صدق واحد ولا كذبه .

فصل

وإنما قلنا إن من شرطه أن يكون معه دعوى الرسالة ، لأن الباري تعالى قد يخرق العادات وينقضها على أيدي الصادقين ، دون دعوى رسالة يدعونها ، ولا يكون ذلك معجزا ، مثل ما يخرق العادات وينقضها كـكرامات الأولياء والصالحين ممن ليس بنبي ولا رسول .

وقد ينقضها عند كثير من الناس على أيدي الكذابين ، مالم يدعوا رسالة، مثل ما روي: أنه ينقضها على يدي الدجال، فيما يظهر أنه يفيض معه من الماء والنار والطعام وهو يدعي الربوبية ، ولو ادعى الرسالة لم يظهر ذلك على يديه ، لأنه إذا ادعى الربوبية ففيه من صفات الحدوث ما يبطل دعواه .

ولو ادعى النبوة وأظهر له هذه الأمور الخارقة للعادة، لم يكن لنا طريق إلى معرفة كذبه، ولوجب أن يكون ذلك تصديقا له ، والله تعالى لايصدق الكاذبين .

فصل

وإنما قلنا إن من شرطه أن يتحدى به من يكون دليلاعليه : أن الرسول - عليه السلام - إنما تظهر هذه المعجزات على يده ، ليكون تصديقا له من ربه تعالى ولا بد أن يقول : إني نبي صادق، وآية ذلك: أن الله تعالى يصدقني بأمر كذا ، مما يخرق به

العادة من أفعاله التي ينفرد بها على يدي ، من فلق البحر وأحياء الموتى، وشبه ذلـك من المعجزات، فمن لم يصدقني فليأت بمثله، ولذلك قا ل:

(أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله)(يونس:٣٨).

وقل تعالى (قل لئن اجتمعت الإنـس والجـن علـى أن يـأتوا بمثـل هـذا القـرآن لايأتون بمثله ولوكان بعضهم لبعض ظهيرا)(الإسراء:٨٨).

وكذلك تحدى موسى -عليه السلام- السحرة وغيرهم بما أتـى بـه مـن الآيـات البينات والله تعالى يصدق رسله ويظهر دينه .

فصـل

وإنما قلنا : إن من شرطه (١٠٦/ب) أن يقارن دعوى الرسالة ولايتقـدمها، لأنـه لـو قل إني رسول الله ، وآية هذا: أن الله قد أحيا الموتى في زمن عيسى -عليه السـلام- وفلق البحر في زمن موسى -عليه السلام- وأن الذئب قد تكلم منذ عامين، لكان لمخالفه أن يقول له : ذلك دليل كذبك وصحة دعوى مخالفك ،

ولكان لغيره أن يدعي بذلك رسالة تناقض رسالته وتوجب إبطالها .

فصـل

وإنما قلنا : إن من شرطه أن يكون بينه وبين مدعي الرسالة تعلق، يكون به شاهدا له، و دلالة على صدقه أنه لو لم يكن كذلك لم يكن له أن يدعيه دليلا على صدقه إلا ولمخالفه أن يدعيه دليلاعلى كذبه ، لأنه لو رأى رجل موسى قد ضرب بعصاه البحر فانفلق، فقال ذلك الرجل أنا نبي وآية هذا انفلاق هذا البحر لم يكن ذلك دليلا على صدقه حتى يعلم أن انفلاقه كان على يده وبسببه.

وكذلك لو قل رجل أنا رسول الله وآية ذلك: أن هذا الجبل يفنى الآن ويعدم حتى لا يبقى له عين ولا أثر ، فيعظم ذلك الجبل ويبلغ أمثال ما علم عليه ، لكان في ذلـك تكذيب له ، ولم يكن فيه تصديق له .

وكذلك لوقال إن الله ينطق الآن هذا الحجر، لتصديقي، فينطقه الله بتكذيبه، لكان في ذلك تكذيب له .

فصل

وإنما قلنا إن من شرطه أن يكون جنسه غير داخل تحت قدر العباد: أنه لو كان يقدر مدعي الرسالة على فعله لكان مصدقا لنفسه .

مثال ذلك: أن يقول: إني رسول الله ، وآية ذلك أني أحرك يدي الآن، فإنه لا يكون ذلك دليلا على صدقه لأنه من جنس دعواه بلسانه .

وقول بعض شيوخنا: قد يكون جنسه داخلا تحت قدر العباد ،إلا أن الوجه الذي من جهته يكون دليلا على صدق مدعي الرسالة، لا يدخل تحت قدرالعباد أنه لوقال لعدد كثير وجم غفير أنا رسول الله وآية هذا أني أحرك يدي الآن وأن أحدكم لا يحرك في هذا الوقت يده ولم يحرك أحد من الآخرين يده مع كثرة عددهم واختلاف أغراضهم وهممهم وقد علموا دعواه وما جعله دليلا على صدقه (١٠٧/أ) لكان ذلك معجزا، ودليلا له، لكنه ليس وجه إعجازه في حركة يده وإنما هي في إمساك العدد والجم الغفير عن تحرك أيديهم .

ولذلك قال تعالى (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ولن يتمنوه أبدا)(البقرة: ٩٤،٩٥).

واليهود الذي خوطبوا بذلك عدد كثير وجم غفير، لم يتمن الموت أحد منهم ، فكان ذلك من معجزات نبينا محمدﷺ وأدلة صدقه .

فبهذه الصفات يتميز المعجز من غيره .

فصل

وإذ قد بينت ذلك من صفات المعجز، فوجه دلالته على صدق مدعي الرسالة:

أنه إذا كان فعل الله ومقارنا لما ادعاه ، والباري تعالى يعلم بما ادعاه عليه وجعله

دليلا على دعواه، ثم فعله له ،وخرق له به العادة ، فهو بمنزلة قوله: صدق رسولي .

ولو ادعى زيد هذا على عمرو، وامرأ أخبر به عنه، وقال آية هذا: أني إذا نظرت إليه حرك يده، وقد علم عمرو بما ادعاه عليه زيد، وجعله دليلا على صدقه في دعواه ، ثم فعل له ذلك، كيف نظره إليه لكان بمنزلة أن يقول صدق في دعواه .

وفي هذه كفاية في بيان وجه دلالة المعجز على صدق مدعي الرسالة ، وفي بيان صفاته التي يتميز بها، مما ليس بمعجز على وجه الاختصار والإيجاز، والله الموفق للصواب برحمته .

الباب الثاني

وإذ قدمنا ذلك فالواجب أن نبين وجه تعلق كون النبي ﷺ أميًا بمعجزاته ،

وذلك أن كونه أميا بمجرده لاتعلق له بالإعجاز ، لأن الأميين في زمنه وفي كل زمن عدد لا يحصى وهم أكثر من غيرهم ولم يكن ذلك معجزا لهم .

ولو ادعى مدع رسالة ، وقال آية ذلك: أني أمّي، لقال له عشرة آلاف من الناس نحن كلنا بهذه الصفة، وهي دليل على كذبك .

وأيضا: فإن **كونه أميا صفة متقدمة من صفاته** ، وقد قلنا إن من شرط المعجز أن يقارن دعوى الرسالة غير متقدم عليها .

وأيضا: فإن المعجز أمرخارق للعادة ، وليس في كون الإنسان أميا خرق لها .

وإذ تبين أنه ليس في مجرد كون الإنسان أميا خرق للعادة ولا تعلق بالإعجاز، فإن الواجب أن ينظر إلى المعاني، التي لا يقدرعليها الأمي في مستقر العادة ، فإذا (١٠٧/ب) فعلها الله للأمي المدعي للرسالة وأقدره عليها، كان ذلك دليلا على صدقه، وكان الإعجاز في إقداره على ما يتعذر على الأميين غيره ، لا في كونه أميا ، ولا يصح ذلك إلا بأن يعلم كونه أميا علما لا يدخله شك ولا ريب .

ووجه ذلك : أن رجلا لونشأ مع إخوته وأقاربه وبني عمه، منذ يولـد إلى أن يبلـغ الأشد، لم يفارقهم جملة ولا ترك مداخلتهم والتصرف معهـم ، لعرفـوا بـذلك جميـع أحواله، ولعرفوا كونه أميا أو كاتبا أو قارئا معرفة ضـرورة ،لا يجـوز عليـه التشـكك والارتياب، فإذا عرفوا من حاله أنه أمي لايميز حرفا واحدا من حروف الهجـاء، إلى أن ادعى النبوة ،وبعد ذلك إلى يوم الحديبية

فلو قال لهم : إنكم قد عرفتم حالي، كما عرفت أحوالكم، وآية صدقي في دعـوى الرسالة : أنكم قد علمتم أني أمي، لم أتعلم كتابة ، ولا تناولتها قط ولا عرفت شيئا منها ، وأنا الآن آخذ هذا القلم وليمل من شاء منكم ما شاء ، فإنه لايخط بيدي القلم إلا ما يملي ، أو إني الآن من أعلمكم بالخط والهجاء ، دون تعليم ، وأدربكم يدا بـه، وأجراكم قلما ، وأحسنكم خطا ، دون تعليم ولا تدريب ، لكان ذلك معجزا ودلـيلا على صدقه ، ولكان بمنزلة أن يثبت ، ولا علم له بالزنجية أو اليونانية ، ثم يصبح من الغد ، ويدعي الرسالة ، ويقول آية ذلك : أنكم قد علمتم أنـي لم أر زنجيـا قـط ، ولا تكلمت بلسانه ، وإني الآن أعرف الناس بلغته، وأدراهم لسانا بمحاورته ، ثم وجـد في الوقت عدد من الزنج لا يصح عليهم التواطـؤ ولا التشـاعر، فـأخبروا بأنـه عـالم بلغتهم ، وأنه ليس أحد منهم أعرف بها من هذا المدعي للرسالة ، ولا أسرع مراجعة ولا أصح نطقا، لكان ذلك معجزا ودليلا على صدقه .

لأن فيه صفات الإعجاز التي اشترطناها في كون المعجز معجزا.

ومن هذا النوع من المعجز : أن نبينا – عليه السـلام – نشـأ مـع قـريش كنشـأة الإنسان منا مع إخوته وبني عمه وأقاربه، ثم لم يفارقهم في سفر ولا حضر، بل كـانوا معه إلى أن ادعى الرسالة ، ولم يعرف قبل ذلك بقـراءة كتـاب ولا دراسـة سـير ولا مداخلة أحد من أهل الملل، حتى بعـث رسـول الله ﷺ فـأخبر عـن القـرون الماضـية والأمم السالفة ، بما لا يبلغ معرفته ويقدرعلى الإخبار بمثلـه إلا مـن أفنـى عمـره في دراسة ذلك وقراءته ومجالسة العليمين به ومـذاكرتهم (١٠٨/أ) بـه، فكـان هـذا مـن

أعظم المعجزات وأكبر الآيات البينات .

لأن هذا ليس من فعل البشر، وهو خارق للعادة ، بعيد عن مستقر الطبيعة واقترن به التحدي ودعوى الرسالة ، ووجدت فيه سائر صفات المعجز ، فكان من معجزاته وبدائع آياته ﷺ وشرف وكرم .

فهذا وجه تعلق المعجز بكونه ﷺ أميا ولذلك قال (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلوه) (العنكبوت:٤٨) .

فلم يكن ﷺ قبل أن أوحي إليه يتلو كتابا ولا يخطه بيمينه ، ثم تلا بعد ذلك أفضل الكتب، وهو القرآ ن من غير تعليم ، وكان ذلك من آياته .

ولم تخرجه تلاوته له، بعد أن لم يتل كتابا قبل نبوته من أن يكون من معجزاته .

فإن كان كتب، بعد أن لم يكتب قبل نبوته ، فإن ذلك أيضا لا يؤثر في شيء من معجزاته ، ولا يرد آية من آياته ولا يغير شيئا مما جاء به .

الباب الثالث

وأما نص مقاضاة النبي ﷺ يوم الحديبية فاختلف الرواة فيه :

فرواه الزهري عن عروة عن المسور ومروان، فقال في هذا الفصل الذي جرى الكلام فيه، فدعا النبي ﷺ الكاتب ، فقال النبي ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال سهيل : أما الرحمن فوالله ما أدري ماهي، ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب.

فقال المسلمون : والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال النبي ﷺ: اكتب باسمك اللهم .

ثم قال : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله.

فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ، ولا قاتلناك ، ولكن اكتب محمد بن عبدالله .

فقال النبي ﷺ : والله إني لرسول الله وإن كذبتموني ، اكتب : محمد بن عبدالله .

هكذا أخرجه البخاري عن عبدالله بن محمد عن عبدالرزاق عن معمر عن الزهري .

ورواه في (الإصلاح بين الناس)عن محمد بن بشار عن غندر عن شعبة عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب فقال فيه :

كتب علي بن أبي طالب بينهم كتابا ، فكتب محمد رسول الله ، فقال المشركون لا تكتب محمد رسول الله (١٠٨/ب)لوكنت رسولا لم نقاتلك .

فقال لعلي : امحه فمحاه رسول الله ﷺ بيده وصالحهم على أن يدخل هو وأصحابه ثلاثة أيام .

ورواه إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب فقال في هذاالفصل :

فلما كتبوا الكتاب كتبوا : هذا ماقاضى عليه محمد رسول الله .

فقالوا : لانقربها، فلو نعلم أنك رسول الله ما منعناك ، لكن اكتب أنا محمد بن عبدالله .

قال أنا رسول الله ، وأنا محمد بن عبدالله ، ثم قال لعلي امح رسول الله .

قال لا والله لا أمحوك أبدا .

فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب فكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبدالله .

هكذا أخرجه البخاري في (الإصلاح بين الناس) عن عبدالله بن موسى عن إسرائيل .

وأخرجه في عمرة القضاء عن عبيدالله بن موسى عن إسرائيل ، بإسناده، فقال: فلما كتبوا الكتاب كتبوا : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله .

قالوا لا نقر بهذا لونعلم أنك رسول ما منعناك شيئا ، ولكن أنت محمد بن

عبدالله .

فقال : أنا رسول الله وأنا محمد بن عبدالله .

ثم قال لعلي بن أبي طالب : امح رسول الله .

قال والله لا أمحوك أبدا.

فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبدالله .

فهذه نبذة كافية في اختلاف الروايات في هذا الفصل من هذا الحديث على وجه الاختصار.

وله أسانيد كثيرة وألفاظ مختلفة يطول بتتبعها الكتاب ولايخرج عن معنى ما أوردناه فلا معنى للإكثار بها وبالله التوفيق.

الباب الرابع

وأما أقاويل الناس في تأويل هذا الفصل: فقد حكى أبو زيد عمر بن شبة بن عبيدة النميري البصري النحوي في كتاب الكتاب أن النبي ﷺ كتب يوم الحديبية بيده ونحى في قوله إلى أنه قصد الكتاب عالما به في ذلك الوقت وأنه لم يعمله قبله ، وذكر أن ذلك من جملة معجزاته ﷺ أن يعلم الكتاب من وقته وأن ذلك خرق للعادة لأنه لا سبيل لأحد أن يتعلمه إلا بعد (١٠٩/أ) مدة طويلة وأنه تعلمه من غير تعليم .

وهذا أيضا أمر خارق للعادة ، لأنه لا سبيل لأحد من الناس إلى ذلك .

وذهب إلى هذه المقالة جماعة من أصحاب الحديث فممن رأيته يقول بها أبو الفتح النيسابوري وقد ذاكرني بذلك في مجلس الشيخ الحافظ أبي ذر عبد بن أحمد الهروي وراجعته فيه فرأيت الشيخ أباذر رحمه الله يميل إلى هذا القول ويستحسنه .

وقد روى ذلك محمد بن خلف وكيع في تاريخه المترجم بالشريف فقال : نا عباس بن محمد الدوري حدثنا أبوالنضر هاشم بن القاسم حدثنا أبوعقيل حدثنا مجالد بن

سعيد حدثنا عون بن عبدالله عن أبيه قال :

ما مات رسول الله ﷺ حتى كتب وقرأ.

قال فذكرت هذا للشعبي فقال: صدق ، قد سمعت أصحابنا يذكرون ذلك .

وهذا الإسناد رواته كلهم مشاهير ، ومحال أن يرووا ما لا يستحلون النطق به فلو لم يذكروا هذا إلا من رواه في هذا الإسناد لكان أمر فاشيا ظاهرا.

فمن خفيت عليه الأمور الفاشية الظاهرة فلايلم إلا نفسه ولا يوبخ إلا قلة علمه.

وعباس بن محمد الدوري هذا رجل مشهور ثقة إمام أثبت الناس في يحي بن معين يروي عنه التاريخ وغيره .

وأبو النضر هاشم بن القاسم ثقة مشهور أخرج عنه البخاري ومسلم في صحيحهما .

وأبو عقيل عبدالله بن عقيل الثقفي الكوفي ثقة صدوق .

قال ذلك أبو حاتم الرازي وغيره من أهل التعديل .

وأما مؤلف الكتاب فهو محمد بن خلف بن صالح بن عبدالأعلى الكوفي .

قال عبدالرحمن بن أبي حاتم : قرأت عليه وهو صدوق .

وقد أخرج هذا الحديث بإسناده ومتنه أبوبكر بن أشته المقرئ الأصبهاني في كتاب علم المصاحف وقرن به أحاديث في معناه .

وأخرج النقاش أبوبكر محمد بن الحسن كتابه في تفسير قوله تعالى (الذي يتبعون الرسول النبي الأمي) فقال : قال الحسن البصري لم يكتب رسول الله ﷺ بيده قط شيئا حتى قبضه الله إليه وكان أميا لم يكن صاحب دراسة كتاب .

وقال غيره : ما مات حتى كتب رسول الله ﷺ .

ورأيت في أجوبة فقهاء أهل صقلية (١٠٩/ب) أبقاهم الله أن أبابكر بن أبي شيبة

قد ذكر ذلك .

وقال غيرهم ممن ذهب هذا المذهب : إنه كتب ذلك اليوم غير عـالم بالكتابـة ولا مميز لحروفها لكنه أخذ بيده فخط به مالم يميزه وهو كتاب صحيح متقن على حسب المراد .

وكان القاضي أبو جعفر السمناني رضي الله عنه يصحح هذا القول ويـراه وجهـا حسنا .

وتعلق هؤلاء في تصحيح ما ذهبوا إليه بقوله في حديث إسرائيل : ثم قـال لعلـي أمح رسول الله فقال لا والله لا أمحوك أبدا فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب ولـيس يحسـن يكتب فكتب .

قالوا : فلفظة كتب وإن كانت قد تستعمل في الرئيس بمعنى أمر من يكتـب كمـا يقال نادى الأمير في الناس بمعنى أمر مـن ينـادي إلا أن إضـافة الفعـل إليـه يقتضـي وقوعه منه ، ولا يجوز صرفه عن هذه الحقيقة إلى المجاز إلا بدليل لأن حملنا كتب على أمر من يكتب صرف له عن حقيقته إلى المجاز .

قالوا: وهذا ما لم يتقدمه قوله فأخذ الكتاب فإذا تقدمه فأخذ الكتـاب لم يسـتعمل حينئذ حقيقة ولا مجازا إلا بمعنى تناول الكتـاب ، ولا يجـوز أن يحمـل علـى أنـه أمـر بالكتاب ، لأنه إذا قال كان علي يكتب فقال له أمح رسـول الله فقـال لا أفعـل فأخـذ رسول الله ﷺ الكتاب فكتب اقتضى ذلك أخذه ﷺ الكتاب من علي .

وإذا كان صريحا في أخذه الكتـاب مـن علـي وجـب أن يكـون صـريحا في تناولـه الكتاب .

ولو جوزنا أن يحتمل في هذا الموضع فكتب : أمر مـن يكتـب لكـان الأظهـر فيـه تناول الكتاب وإذا احتمل اللفظ معنيين هـو في أحـدهما أظهـر وجـب حملـه علـى أظهرها ، ولا يجوز العدول عنه إلى الآخر إلا بدليل .

ولو حملنا فكتب على أمر من يكتب بغيردليل لوجب أن يحمل (فأخذ الكتاب) على أمر من يأخذه وصلى على أمر من يصلي ودخل مكة معتبرا على أمر من يدخلها .

وهذا يؤدي إلى أنه لا يصح إضافة فعل إليه بوجه ولا يثبت له في مدة حياته عمل ولا عزو ولا تصرف بوجه ولا سبب .

وهذا ما لا يستجيز ذو لب ارتكابه .

وإذ لم يجز ذلك وجب أن يحمل كل ما أضيف إليه من الأفعال على أنه ﷺ باشرها بنفسه إلا أن يمنع من ذلك دليل .

فإن قيل إنما أراد فأخذ الكتاب فمحى رسول الله ثم أمر عليا فكتب وذلك بحسب ما ورد في حديث (١١٠/أ) شعبة عن أبي إسحاق : قيل ليس في لفظ حديث شعبة أنه محا ثم أمر عليا فكتب .

وإنما فيه أنه محا ، ولايمتنع أن يمحو ثم يكتب . وبذلك يقضي جميع حديث شعبة وإسرائيل .

ولايجوز اطراح أحد الحديثين مع إمكان الجمع بينهما وأخذ الزائد من كل واحد منهما .

ووجه آخر : وهو أنه قال فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب .

ولا بد أن يكون لقوله (وليس يحسن يكتب) فائدة في هذا المكان وإلا كان لغوا وهذيانا ، وقد علم الناس من حاله أنه كان لايكتب فلم يبق له فائدة إلا أنه أخذ الكتاب في وقت لايحسن أن يكتب فيه فكتب على وجه إظهار المعجز وخرق العادة .

يبين ذلك أن قائلا لوقال كتبت الكتاب بين يدي الرئيس فأخذ الرئيس منه الكتاب ولم يكتب قبل ذلك كتابا فكتب كتابا بليغا : لم يفهم منه أحد إلا أنه باشر الرئيس الكتاب.

ولو قال السيف بيد الشرطي فأخذ الرئيس السيف ولم يقتل قبل ذلك فقتل لم يفهم منه إلا أنه باشر القتل .

وهذا لا ينكره من فهم اللسان العربي وأنصف نفسه .

بل لايحسن غيره إذا كان المخاطب لنا لم يرد الإلغاز وتغيير الكلام ، وإنما خاطبنا بمعتاد التخاطب ومفهوم اللغة .

ولو جاز لقائل أن يقول : إنما أراد بذلك فأمر من يكتب ولا يفتقر في ذلك إلى دليل ، لما صح أن يضاف إلى النبي ﷺ ولا إلى غيره فعل باللسان العربي وهذا باطل باتفاق .

فإن قيل : إنما يكون هذا في رئيس قد علم أنه يتأتى منه الكتاب .

فأما رئيس قد علم أنه لا يصح منه الكتاب جملة فإنه لا يفهم منه إلا أنه أمر بالكتاب .

فالجواب : أنه لا يسلم لكم مخالفتكم أنه لا يصح من النبي ﷺ الكتاب على الإطلاق وإنما لا يصح منه الكتاب على الوجه الذي يصح من الواحد منا تعلما عند بعض القائلين بهذه المقالة وعلما عند سائرهم .

ولكنه يصح منه الكتاب على وجه إظهار المعجز وخرق العادة .

وهذا لايتأتى من غيره ولايصح ممن ليس بنبي مثله ، فلذلك قلنا إن من ليس بنبي ولا يحسن الكتابة لا يحمل قوله كتب بكل وجه إلا على أنه أمر بالكتاب .

بل لا يصح أن يقال فيه فأخذ الكتاب ولم يكن يحسن أن يكتب فكتب .

وأما النبي ﷺ فيصح منه عند مخالفتكم أن يكتب على وجه إظهار المعجز وخرق العادة.

فهو في مسألتنا بمنزلة (١١٠/ب) من يكتب من سائر الناس وقد أجمعنا على أنه لو كان ممن يحسن الكتابة لم يقتض وصفه بهذا اللفظ إلا أنه باشر الكتابة بيده ،

فكذلك وصف النبي ﷺ بهذا الوصف يقتضي ذلك لكنه يقع من النبي ﷺ خرقا للعادة ويقع من غيره جريا على العادة .

وليس الكلام معكم في وجه كتابته وإنما الكلام معكم في إنكاركم ما روي من ذلك وادعائكم أنه مخرج عن الشرع .

وتعلقت الفرقة التي ذهبت إلى منع هذه المقالة برواية ابن شهاب وفيها والله أعلم : والله لوكنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب محمد بن عبدالله .

وقال في حديث شعبة عن أبي إسحاق فمحا رسول الله ﷺ .

وهذا مع حديث إسرائيل عن أبي إسحاق حديث واحد وفي مقام واحد .

وهذا يدل على أنه أخذ الكتاب فمحا وقال لعلي بعد ذلك : اكتب محمد بن عبدالله .

وجاوبتها الطائفة الأولى عند ذلك بأن قالت : إن الواجب في الجمع بين الحديثين أن لا يطرح أحد شيئا من لفظ أحدهما ولا يغيره عن ظاهره إلا بدليل .

وعلى ما ذكرتموه يسقط من لفظ حديث إسرائيل فكتب ، لأن معناه عندكم فأخذ الكتاب فمحا على رواية شعبة .

والصواب في الجمع بين الحديثين أن يكون قال لعلي امحم رسول الله واكتب محمد بن عبدالله فلما أبى من ذلك علي رضي الله عنه أخذ رسول الله ﷺالكتاب فمحا رسول الله ﷺ وكتب محمد بن عبد الله .

وهذا وجه صحيح في الجمع بينهما ، لأنه استعمل الزائد من لفظ الأحاديث كلها وحملها على ظاهرها وحقيقتها ، وكان ذلك أولى من تأويلكم في الجمع بينهما ، لأنكم تسقطون لفظة كتب أو تعدلونها عن ظاهرها فتحملونها على أنه أمر من يكتب ، وتحملون محا على أنه باشر المحو وأحدهما معطوف على الآخر .

وهذا غاية التحكم دون دليل ولا ظهير فكان ما قلناه .

الباب الخامس

وأما من قال يبطل معجزة النبي ﷺ إذا كتب يوم الحديبية وإن في تصديق ذلك تكذيبا للقرآن وتغييرا للشريعة فقد بعد عن الصواب جدا وأراه قال ذلك (١١١/أ)حردا أو عنادا .

والواجب عليه أن يتفقد أقواله قبل أن يطلقها ويقيدها ولا يهملها فليس الغرض في الكلام وإنما الغرض في الإصابة والمتكلمون كثير والمصيب نزر يسير .

والصواب أن يقال في ذلك : إنه لوصح ما روي عن النبي ﷺ من ذلك لكان معدودا في جملة معجزاته وعظيم آياته مؤكدا لما ورد به القرآن من صدقه وكونه أميا لا يكتب ولا يقرأ ، وذلك أن المعرفة بأن النبي ﷺ أمي حصلت لمن خالفه من الأمم التي احتج عليهم بذلك من وجهين :

أحدهما : من نشأ معه من قريش الذين نشأوا معه من الصغر إلى الكبر لم يفارقوه بل كانوا معه في المجاورة والمساكنة والمداخلة والمباطنة بمنزلة الإنسان من أخيه الذي ينشأ معه ولا تخفى عليه شيء من حاله ، فعرفوا بذلك أنه لا يكتب ولا يقرأ معرفة ضرورية لايدخلها شك ولا ريب كما يعرف الرجل منا في ذلك حل أخيه وابنه وأبيه وقريبه المداخل له المباطن لأمره .

هؤلاء عرفوا بذلك من حاله إلى أن آمن منهم العدد الكثير والجم الغفير الذين لا يجوز عليهم التواطؤ ولا التشاعر ، ثم لم يفارقوه إلى أن كانوا معه على ذلك يوم الحديبية .

وطائفة أخرى عرفوا ذلك من جهة هؤلاء وإخبارهم بذلك من حاله إخبارا متواترا يوجب العلم ويقطع العذر.

ثم كانوا معه على ذلك يوم الحديبية وهم عدد كثير يقع العلم بخبر طائفة منهم

فكيف بخبر جميعهم .

ولو لم يعلم أنه أمي لا يكتب ولا يقرأ إلا بقوله لما كان في ذلك حجة على من خالفه و لجاز أن يقولو ا له من أو ل ما بعث وادعى أنه يقرأ من غير تعليم نحن لا نعلم ذلك من حالك بل يجوز أنك أنفقت عمرك في تعلم القراءة والكتابة والتدرب.؟

لكن منع من ذلك ما علم الجم الغفير والعدد الكثير من قريش وغيرهم ممن خالفه .

فإذا تقرر ذلك ثم ظهر منه يوم الحديبية أنه أخذ الكتاب من يد علي فكتب فإذا قال إنكم قد علمتم من حالي أني لا أكتب ولا أقرأ كتابا وأنا الآن آخذ القلم فأصور صورة لا أميزها غير أن القلم لا يجري في يدي إلا بما قد وافقتموني عليه وقاضيتموني به فإن ذلك دليل ظاهر ومعجز بين قاهر ، لأن هذا خارق للعادة بعيد عن مستقرها لأننا لا نشك أنه لا يتأتى ممن لا يحسن الكتابة أن يحرك القلم بيده فينتظم له (١١١/ب) من ذلك سطر واحد من أسطر الكتاب بل كلمة من كلماته فإذا رأيناه قد اتفق له من ذلك جميع الكتاب المتفق عليه علم أن ذلك من فعل الله تعالى وما أظهر علي يدي رسوله عليه السلام من معجزاته الشاهدة بصدقه .

وكذلك لو قال : إنكم قد علمتم من حالي أني لا أحسن الكتابة ولا أقرأ الكتب وقد علمتم أنه لا يتأتى معرفة ذلك لأحد إلا بتعليم بشر في مدة طويلة وتدريب ومواظبة .

وأنا الآن قد علمنيه الله تعالى من غير تعليم بشر ، ثم أتى منه بمالايتأتى لبشر المزيد عليه لكان في ذلك دليل على ما يدعيه من الرسالة ومعجز لما أتى به من النبوة ولكان ذلك من جنس ما أتى به من المعجز في ذكره من أخبار الماضين وقصص الأولين من غير تعليم ولا قراءة و لا مداخلة أهل الكتاب والسير مما لا يمكن أن يتأتى لأحد إلا بتعليم ومواظبة على القراءة ومثابرة على الدراسة في المدد الكثيرة

والأعمار الطويلة .

فإن قيل فإن الله قد وصفه في كتابه بأنه أمي فقال تعالى : (النبي الأمي) فإن الجواب عن ذلك من وجهين :

أما على قول من قال إنه حين كتب لم يميز ما كتبه بل القلم جرى في يده بما قد قرأ منه الحاضرون ما اتفقوا عليه من المقاضاة : فإن الجواب على هذه المقالة بين واضح أنه لا يوصف من هذه صفته وظهر مثل هذا من جهته بأنه كاتب ولا أنه غير أمي .

بل صفته من ذلك بعد أن خط الكتاب كصفته قبل أن يخطه .

وأما على قول من قال إنه في ذلك الوقت ميز الخط وعرف أشكاله فإنه يكون معنى وصفنا له أنه أمي في الجملة لأنه لا يوصف بالكتابة إلا من عرفها في معظم أوقاته وأكثر عمره .

وأمامن عرفها ساعة واحدة من عمره فإنه لا يوصف إلا بغالب أحواله .

ولذلك تصف الرجل بأنه حليم وإن وجدنا له ضجرا في ساعة من عمره وحرجا في وقت من مدته .

وتصف الرجل بالكرم والشجاعة وإن وجد منه البخل والجبن في وقت من أوقاته .

هذا وإن كان ذلك خلق من أخلاقه قد طبع عليه إلا أن الخلق الأحرى غلب عليه.

فكيف بمن لم تكن له الكتابة بخلق وإنما جبل عليها واضطر إليها في وقت من أوقاته كحنين وتسبيح الحصا وكلام الذئب ولا يوصف شيء من ذلك بأنه متكلم بل يوصف الحصا (١١٢/أ) والجذع أنهما من جملة الموات والأجسام الصامتة .

ووجه آخر وهو أنه لمن قال بهذه المقالة أن يقول :

وصفه بأنه أمي في هذه الآية يحتمل أن يريد به أنه من الأمة الأمية ولا يريد نفي الكتابة والقراءة عنه بهذه الآية إنما يريد نسبته إلى الأمة الأمية وقد قال تعالى : (بعث

في الأميين رسولا منهم) ، ولانشك أن أبابكر وعمر وعثمان من جملتهم وإن كانوا قد كتبوا ، وقرؤا ، لكنه أراد بذلك نسبتهم إلى الأمة الأمية لا نفي الكتابة والقراءة عنهم .

و وصفت الأمة بأنها أمية بأعظم أحوالها فلا يثبت حينئذ على هذا النبي ﷺ نفي الكتابة والقراءة عنه بقوله (النبي الأمي) وإنما يثبت له ذلك بقوله تعالى : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) وبغير ذلك من الأدلة .

فصل

فإن قيل قد روي عن النبي ﷺ أنه قال : " نحن أمة أمية لا نحسب ولا نكتب : الشهر هكذا وهكذا وهكذا " فحبس إبهامه في الثالثة ، فإن هذا أيضا لاتعلق فيه لأنه من أخبار الآحاد التي لا يقع لنا العلم بتضمنها وهو من جنس الحديث المروي في أنه كتب .

فلا يجوز التعلق بأحدهما دون الآخر إلا بدليل .

هذا إذا سلمنا أن لكم فيه تعلقا فكيف وليس لكم فيه تعلق ، لأنه ﷺ وصف الأمة بأنها أمية لا تكتب ولا تحسب .

ونحن نعلم أن منها من يحسب ويكتب كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية وسهل بن حنيف وزيد بن ثابت وعبدالله بن مسعود وأبي بن كعب وجماعة غيرهم .

فعلمنا أن المراد به وصفهم في الجملة لا وصف آحادهم وأعيانهم أو نفي كتابة مخصوصة وحساب مخصوص عنهم لأنه محال أن ينفي عنهم وعن نفسه جميع الحساب لأنه ﷺ قد قال :الشهر تسع وعشرون وقال الشهر هكذا وهكذا وهكذا .

وورد بالقرآن كثير من الفرائض وهذا كله نوع من الحساب .

وقد ورد الشرع بكثير من حساب الفرائض وهو أدق أنواع الحساب .

فعلمنا بذلك أنه أراد نفي حساب مخصوص وكتابة مخصوصة ، وهو أنه لا يلزمنا

إثبات أهلتنا والتزام صومنا وإقامة حجنا بكتاب المنجمين وحسابهم وأن الأمي الذي (١١٢/ب)لايحسب ولا يكتب بشرعه ويمكنه أداء فرائضه .

ولو لزمنا كتاب المنجمين وحسابهم وإثبات الأهلة من جهتهم لم يتم للأمي شرع ولا أمكنه أداء فرض .

فأشار ﷺ إلى تحقيق ما يقع به الإجزاء وتيسيره وتسهيله كما قال تعالى : (وماجعل عليكم في الدين من حرج) وقال النبي ﷺ في وصف شريعته : " الحنيفية السمحة".

وأخبر الباري تعالى أنه رفع عنا الحرج وهو الضيق ، وإلا فقد لزمنا بالشرع أمور تشق على الإنسان وتضيق عليه ولا سبيل له إلى تركها كالصوم في زمن الحر لا سيما لمن يشتد عليه الصوم وتكلف السفر إلى الحج ، وحرم الفرار من الزحف وأن لا يفر الإنسان من اثنين من الكفار ، ويجتنب المحرمات وإن كان يشق عليه تركها ، ويترك الظلم وإن كان فيه شفاء غيظه وغير ذلك من الأمور التي لاتحصى كثرة .

وعلى هذا وصف النبي ﷺ شريعته بأنها السمحة بمعنى أنه نفي عنها نوعا من المشقة .

فإن قيل إنما أراد بقوله : " نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب " ، وصف نفسه خاصة فقد يوصف العالم بأنه أمة قال الله (إن إبراهيم كان أمة) فالجواب أنه لايصح لأنه قال (أمية) وأمية لايوصف به العالم الواحد ولو أراد ذلك لقال أمة أمي كما قال تعالى : (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا) ولم يقل قانتين .

فإن قيل هو وإن قال :" نحن أمة" وأتى بلفظ الجماعة فإنما أراد نفسه وحده كما يقول الأمير والرئيس نحن نفعل يريد نفسه خاصة فيخبر عن نفسه بلفظ الجماعة فالجواب أنه لو سوغنا لكم هذا لكان اللفظ يحتمل أن يخبر عن نفسه بلفظ الجماعة ويحتمل أن يخبر عن نفسه وعن أمته أجمعين .

ولفظ الجمع في الجماعة أظهر فوجب أن يحمل على ظاهره حتى يدل دليل على العدول عن ذلك.

وليس لكم أن تحملوه على ماذكرتم لماقدمناه من الأدلة إلا ولنا أن نحمله على ماذكرناه بذلك ونبقيه على ظاهره وذلك أولى .

وجواب ثان : وهو أن ما قلتموه يبطل فائدة الحديث لأنه ﷺ إنما قال : " نحن أمة أمية لا نحسب ولا نكتب " مجيبا بذلك عن حكم أهلة الصوم والفطر والمواسم (١١٣/أ) وهذا حكم يلزم جميع الأمة .

فلو قصد إلى وصف نفسه خاصة لاقتضى ذلك قصر هذا الحكم عليه واختصاصه به ولا خلاف بين هذه الأمة في مشاركتنا له في هذا الحكم وأنه ﷺ إنما قصد تبيين ذلك لنا والإخبار عن فرضنا فيه وما يلزمنا منه .

جواب ثالث : وهو أن هذا يبطل بوجه آخر وهو أنه لا خلاف أن النبي ﷺ كان أعلم الناس بالفرائض وما يجب لكل أحد منها ، ولم يقل أحد من الأمة إنه أتى بفريضة فقال لا علم لي بها وإن أمتي تنفرد بعلم ذلك دوني ولا أنه وكل إلى أمته حساب الصدقات من الإبل والبقر والغنم وغيرها وأخبر عن نفسه أنه لا يعلم قليلها من كثيرها ولا منتهى نصبها ومقادير أعدادها ، ولا روى عنه أنه عجز عن قسم ما غنم من المواشي وغيرها من الأموال .

بل روي عنه أنه قسمها ، وهذه معان كلها تحتاج إلى حساب .

وروي عنه أنه خرص ثمرة في رؤوس النخل وخرص أصحابه فأخرجت خرص رسول الله ﷺ .

وهذه كلها أبواب من الحساب .

إلا أنه يلزم هذا المتصور أن النبي ﷺ لم يعلم شيئا من الفرائض ولاغيرها من أنواع الحساب من قسمة الغنائم ونصب الزكوات وما يجب لكل نصاب وفرض منها ويقول إن الصحابة كانت أعلم بذلك منه أو منفردة بعلمه دونه فيخالف الإجماع ويفارق الإسلام وأرجو أن لا يفعل .

وإذا ثبت أنه ﷺ أراد بقوله لا يكتب ولا يحسب نفي نوع من أنواع الكتابة والحساب أغناه الله عنه ولم يفتقر شرعه إليه جاز حينئذ حمل الحديث على عمومه فيه وفي أمته وأن الله قد مكنهم من أداء فرائضه واستيفاء حقوقه والقيام بمناسكه دونه .

ويجوز على ما قلناه أن يريد نفي الكتاب والحساب عن جمهورهم وأكثرهم .

ويجوز فيها وجها ثالثا وهو أنه ﷺ قال : " نحن أمة أمية لا نحسب ولا نكتب " يريد نفسه خاصة على ما يدعونه قبل يوم الحديبية ثم وجد منه الكتاب بعد ذلك يوم الحديبية على قول القائل بذلك .

فيجمع بين الحديثين وذلك أولى من اطراح أحدهما .

وهذا كله من المسامحة وارتكاب أشد القولين .

وأما على قول من قال أن كتب (١١٣/ب) بمعنى حرك يده فتصورت منه الكتابة ولم يقصدها قصد عارف بها ومميز لحروفها فلا يحتاج إلى شيء من هذا التأويل مع ظهوره لأنه مع ما ظهر من أنه أمي لا يكتب على الحقيقة كما أن الإنسان قد يوجد في أثناء كلامه الكلام الموزون على وزن الشعر لا يقصده ولا يريده فلا يكون شعرا ولا يوصف القائل له بأنه شاعر .

ولو تتبعت كثيرا من كلام الناس وتجاربهم وأنسابهم لو جدت منه مالا ينحصر وقد يوجد من ذلك في القرآن فلايوصف بأنه شعر وذلك قوله تعالى : (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) .

وقوله : (من تزكى فإنما يتزكى لنفسه)

وقوله عزوجل : (وجفان كالجواب وقدور راسيات)

وقد يوجد في كلام النبي ﷺ ويوجد في الأنساب في قولهم يا زيد بن خالد بن فاضل .

ولا يوصف شيء من ذلك بأنه شعر ولا يوصف القائل له بأنه شاعر .

بل يوصف الإنسان بأنه غير شاعر إذا لم يتأت له مع القصد فكذلك يوصف النبي ﷺ بأنه أمي غير كاتب إذا لم تتأت له الكتابة مع القصد إليها وتبيين حروفها وإنما يوجد منه على وجه إظهار المعجز على ما قدمناه .

فإن قال قائل : فإن الله تعالى قد وصفه بأنه لم يخط كتابا فقال عز من قائل : (وماكنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون) .

فالجواب أنه قال تعالى إنه لم يتل قبل النبوة كتابا ولاخطه بيمينه وهذا النفي لا يتناول ما بعد النبوة ولذلك لم يبطل بما تلاه بعد ذلك من كتاب القرآن وما فيه من القصص وأخبار النبيين قبله والمرسلين على وجه إظهار المعجزات وتبيين الأيات .

وكذلك لا يبطل هذا النفي بأن يكتب بعد ذلك على مثل هذا الوجه .

وهذه كلها تعلقات ضعيفة لمن بلغ هذا الحد من الإنكار .

ولم أسمع أحدا من شيوخنا ولا بلغني عن أحد من أهل العلم أنه يدعي إبطال معجزة ولا تغيير شريعة ولا رد شيء من القرآن بهذه المقالة .

وكفاك بقول لا سلف له فيه ولا حظ له في إجماع المسلمين مع التمسك به .

وإنما المسلمون في هذه المسألة بين قائلين :

قائل يقول إنه ﷺ كتب يوم الحديبية على حسب ماقدمناه .

وقائل يقول لم يثبت ذلك ولو ثبت لم يكن فيه رد للشريعة (١١٤/أ) ولا إبطال المعجزة فمن ادعى قولا ثالثا مثل ما ادعى هذا المنكر فقد خالف الإجماع وخرج عن قولي الأمة .

وإنما يبلغ هذا الحد بإنكار أقوال العلماء مضعوف لا بصرله بمواقع الكلام ولا تمييز عنده للمعجز من غيره ولا معرفة بأقوال العلماء ولم يلق أحدا من أهل العلم فيأخذ عنه ويقتدي به فإذا بلغه ما لم يعرفه بادر إلى إنكاره فلم يكن عنده إيضاح حجة ولا تعلق بدليل فيفرغ إلى التشنيع والتمويه ليتيقن بذلك عند العوام .

وحسبك أنه لا يمكن أن ينسب قوله إلى قائل سبقه وإمام تقدمه .

وإلا فليذكر واحدا من الأمة قال بقوله وذهب إلى مذهبه ولا سبيل له إلى ذلك وبالله التوفيق .

الباب السادس

وأما الصحيح الذي يجب أن يعول عليه في هذه المسألة ويقال به فإن الظاهر من لفظ الحديث من رواية إسرائيل عن أبي إسحاق أنه ﷺ كتب الكتاب إلا أنه حديث آحاد لايوجب العلم .

ومعجزات نبينا عليه السلام ثابتة عند من لم يشاهدها من طريق التواتر الموجب للعلم والقطع دون أخبار الآحاد

والتواتر في ذلك على ضربين :

تواتر من جهة اللفظ وتواترمن جهة المعنى .

فأما التواتر من جهة اللفظ فمثل نقل القرآن على لفظه و وجوه إعجازه الذي نقلته الأمة نقلا متواترا يوجب العلم ويقطع العذر وهو المعجز الباهر والدليل الواضح .

وأما التواتر من جهة المعنى، فنحو :

ما روي عنه أنه ﷺ كلمه الذراع وحن إليه الجذع ونبع الماء بين أصابعه وأطعم أهل الخندق وهم عدد كثير من طعام يسير كان لجابر بن عبدالله ، وأطعم نحو الثمانين من أقراص أرسلها إليه أبو طلحة وحطها اثنين تحت يده ، و وضأ نحو الثمانين من الغمر الصغير ، و وضع سهما من كنانته في بئر الحديبية بعد أن نزحت فصدر الناس عنها بالري ، وتوضأ من عين تبوك ثم رد فيها فجرت بماء كثير ، واستقى أصحابه وهم عدد كثير من مزادة المرأة ثم صدروا عنها وهي تبض بالملئ ، وغير ذلك من معجزاته مما لا يحصي كثرة مما رويت ونقلت بأخبار الآحاد ولا يقع لنا العلم

بمجموعها بأنه قد (١١٤/ب)عمل عملا خرق به العادة وأظهر به المعجز .

ولا يتعين لنا ذلك الفعل بنفسه فنعلمه دون غيره .

وبهذه الطريقة عرفنا سخاء حاتم وشجاعة علي رضي الله عنه ، لأنه روي عنه من طريق آحاد أنه فعل كذا يوم كذا و روي عنه من طريق أخرى أنه فعل كذا يوم كذا .

و وردت من ذلك أخبار كثيرة من طرق مختلفة فوقع لنا العلم بمجموعها أنه عمل عملا يقتضي أن يوصف له بالشجاعة وإن لم يقع لنا العلم بعين فعل من تلك الأفعال .

فإذا تقرر هذا فقد روي من طريق إسرائيل أن النبي ﷺ كتب يوم الحديبية وهو أمي لا يعرف الكتاب .

إلا أنه وارد من جهة إسرائيل انفرد بذلك وقد تكلم في سوء حفظه .

وخالفه شعبة وغيره من الحفاظ فلم يرووا هذه الزيادة وهم أحفظ منه وأولى بالاعتماد عليهم والأخذ برواياتهم .

وقد روي أيضا من غير طريق أبي إسحاق فلم ينقل أحد هذه الزيادة كالزهري وغيره من الأئمة .

وكانت روايتهم أولى من رواية أبي إسحاق لو ثبت ذلك عنه فكيف وقد قدمنا في منع ذلك مافيه كفاية .

وعلى كل حال فهو مروي من طريق الآحاد الذي لايقع العلم بتضمنه .

ولو لم يعترض عليه مما ذكرنا بوجه لم يقع لنا العلم به .

ولو وقع لنا العلم بما نقل إلينا متنه وبما نقل إلينا من سائر أخبار الآحاد منقولة في سائر معجزاته التي ذكرنا بعضها قبل هذا أنه قد فعل فعلا خرق به العادة وأظهر به المعجزة البينة : لم يقع لنا العلم بعين تلك المعجزة أهي أنه كتب يوم الحديبية

أوغيرها كلمة مما ذكرنا قبل هذا أو جميعها .

هذا وقد اختلف شيوخنا في جنس العلم الواقع به فمنهم من قال إنه علم ضروري .

ومنهم من قال إنه علم نظري فإذا لم يقع لنا العلم بصحة هذه الرواية فالصواب الرجوع إلى المعلوم من حاله ﷺ والمشهور من صفته في امتناع الكتابة عليه .

غير أنه من قال : إن النبي ﷺ قد كتب قبل النبوة فقد كفر لأنه كذب نص القرآن في قوله تعالى (وماكنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) وخالف إجماع المسلمين .

وأما من قال إنه لم يكتب قبل النبوة وكتب بعدها على ما نقلناه من أقوال الناس في ذلك فليس في قوله ما يقتضي الكفر لأنه لم يخالف (١١٥/أ) نص القرآن ، لأن القرآن إنما تضمن نفي الكتابة عنه قبل النبوة ، ولا خالف إجماع المسلمين ، ولكنه مخطئ في قوله ذلك لما بينته في هذا الكتاب .

فهذا وجه المسألة وما يتعلق بها ويجب أن تعتمد عليه فيها قد أوردناه على وجه الاختصار والبيان وفيه كفاية لمن نصح نفسه ووفق لرشده والحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وحسبنا الله ونعم الوكيل .

تم كلام الإمام الحافظ القاضي أبي الوليد الباجي رضي الله عنه.

ملحق الكتب والرسائل والمقالات في مسألة أمية النبي محمدﷺ

مدونات قديمة:

١- تحقيق المذهب في أن النبي كتب ، لأبي الوليد الباجي الفقيه المالكي مخطوط (بأزمة باغشلو) بتركيا رقم (٣/١٨٨٥) من ص١٠٥/ب ، حتى ص ١٢٥/أ .ولم يثر مثل هذا الكتاب في المسألة جدلاومناقشة ، حتى إنه خلف رسائل خطت بعده ، بين مؤيد ومعارض؛ جمعها وحققها مع رسالة أبوالوليد الباجي بعض الباحثين ، وقد كان متحاملا في عرضه وتحقيقه ، ونشرت هذه المجموعة تحت عنوان " تحقيق المذهب " في عالم الكتب بالرياض سنة ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣م.

٢- رفع الإصر عن معنى كونه ﷺ أميا لم ينطق الشعر لـ(محمدبن عبدالرسول البرزنجي)[١٠٢]، (ذيل/٥٥٧) ، كذا نقله صلاح الدين المنجد في (معجم ما ألف عن محمد ﷺ) ص ٧٤ ، ولكن عنوان الكتاب يشير إلى أن المؤلف ينفي عن النبي ﷺ القراءة والكتابة ، وهذا غيردقيق ، قياسا لماورد عندالكتاني في " التراتيب الإدارية " حيث قل " و وقفت في المدينة المنورة على رسالة حافلة للعلامة المحقق الشمس محمد بن عبدالرسول البرزنجي الشافعي المدني في إثبات الكتابة والقراءة لرسول الله ﷺ ، ولم يتيسر لي تلخيصها ".

٣- رسالة في حقيقة النبي ، وأنه كان أميا لـ (عبدالله البوسنوي) ، مخطوطة الظاهرية بدمشق رقم ١٢٣٥.

---

[١٠٢] توفي سنة ١١٠٣ هـ ، وترجمته في معجم المؤلفين ١٠/١٦٥.

٤- أمية النبي : فصل في كتاب "الدين والدولة في إثبات نبوة محمدﷺ" لعلي بن ربن الطبري[١٠٣] ، نشرهذا الكتاب بعناية أ/ منغانة المستشرق عن نسخة وحيلة في خزانة رايلندز بمانشستر سنة ١٩٢٣،ثم أعيد طبعه في تونس وبيروت نقلا عن نسخة منغانة ، وقد عثرت على مخطوطة أخرى غيرالتي اعتمدها منغانة .رأى الطبري أن النبي محمدﷺ كان أميا ولا عيب في ذلك ، إذ كان النبي داود أميا ـ أيضا ـ كما ذكر في المزامير.

مدونات حديثة :

١- فصل النبوة :

ضمن مقالات جمعها د/ محمد توفيق صدقي[١٠٤] ونشرت في المنار سنة ١٣٢٣ هـ أثبت في هذا الفصل أن النبي ﷺ كان أميا لا يقرأ ولا يكتب بدلائل من سيرته وحياته ﷺ.

٢- الرد الشافي الوافر على من نفي أمية سيد الأوائل والأواخر لابن حجر قاضي قطر ، طبع هذا الكتاب في بيروت دار لبنان سنة١٣٨٨هـ .

وهو كتاب قائم بعينه لمناقشة القضية ، يغلب عليه الأسلوب الوعظي والطابع الخطابي ، على عكس مظهره فالكتاب مجلدة تربوعلى الثلاثمائة ورقة ، كنت أظن أنه سيعطى الكثير من المعلومات الهامة في هذا الموضوع ، فلم أظفر بظني ، وقد يجد فيه

---

[١٠٣] من أعلام القرن الثالث الهجري ، عاصر العصر الذهبي للخلافة العباسية ،وتوفي بعد خلافة المتوكل .

[١٠٤] توفي سنة ١٩٢٠م ،جدير بالذكر أن الرجل كان له باع كبير في التأليف في حقل الأديان المقارن ، وكتب فيه الكثير من المقالات ، كما صنف كتبا مستقلة في هذا العلم ، وتصدى لحملات التبشير ، وقام بدور بارز في الإصلاح في عصره ، وكاد أن يكون سببا في إغلاق جريدة المنار؛ لحملته على النصارى آنذاك .

إلا أن ذلك لم يوضع له اعتبار عند بعض أتباع التيار السلفي الحديث ، فرموا الرجل بالتهم وهو منها براء .

غيري مالم أجده .[١٠٥]

٣- كتاب للدكتور سيد عبداللطيف الحيدرآبادي عن أمية النبي محمدﷺ أثبت فيه أن النبي كان يعرف القراءة والكتابة .

ولم أطلع على هذا الكتاب حتى أتحقق من معلوماته الواردة بشأن الأمية

٤- النبي الأمي : للشهيد آية الله مرتضى مطهري .

كتبه بالفارسية ، وترجمه محمد علي التسخيري ، وطبع في مركز الإعلام للثورة الإيرانية ، طهران سنة ١٩٨٠م.

٥- مفهوم الأمية في القرآن لـ : أحمد شحلان ، في مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة محمدالخامس عدد "١" سنة ١٩٧٧م ص ١٠٣-١٢٥.

١- ملحق الأمية في كتاب من هو سيد القدر لـ محمدسعيد البوطي ، ط : دار الرسالة بيروت سنة ١٩٨٣م.

٢- فصل (معرفة النبي للكتابة والقراءة) في كتاب (تاريخ القرآن) لـ : الدكتور عبد الصبور شاهين ، ط: دار القلم ، بيروت سنة ١٩٦٦ ص ٤٧- ٥٧ .

٣- فصل " النبي الأمي " في كتاب " دفاع عن القرآن ضد منتقديه " لـ : الدكتور / عبدالرحمن بدوي ، الترجمة العربية ، كمال جادالله ، الدارالعالمية للكتب والنشر، القاهرة .

٤- أمية الرسول محمدﷺ مقال للدكتور الدوري ، مجلة جامعة الأمير عبد القادر، الجزائر عدد (٥) سنة ١٤١٤ هـ .

٥- النبي الذي علمه ربه :لـ : أحمد عطية ، ط: دار الشعب القاهرة .

---

[١٠٥] نسبه (أي الكتاب) صلاح الدين المنجدفي معجمه السابق لابن حجرالهيثمي ، سهوا ، لكنه ليس للهيثمي.

الفهرس

ت : 1/28/2/07 تاريخ استلام : 28/2/2007







مكتبة النافذة